الإنسان والزمن في التراث الشعبي

د. نبيلة ابراهيم *

(١)

من العبث ان نبحث فى معجم الانسان البدائي والشعبى عن المصطلحات الفلسفية الخاصة بعلاقة الانسان بالزمن مثل الوجود والعدم ، والشيء الحقيقي والوهمي ،والثبات والصيرورة الى غير ذلك.على اننا اذا كنا نفتقد هذه المصطلحات الفلسفية ، فاننا نجد البديل عنها وهو الشيء نفسه او الرمز المجسد فى الاساطير والطقوس .

فمنذ ان وجد الانسان نفسه على سطح الارض ، ملك العالم السماوى عليه حسه وفكره نتيجة شعوره العميق بارتباط حياته المادية بهذا العالم . فلما أطلق العنان لخياله فى تصور هذا العالم ، صوره صورة مطابقة لعالمه الحسي بما فيه من أنهار وجبال وخضرة . ولابد ان تتربع على عرش هذا العالم القوة المحركة لهذا الكون والمتحكمة فى مصيره ، وهي الآلهة . ولكن كيف كانت علاقة الانسان بالعالم السماوى وآلهته ؟ هل كانت تتحكم فى

---

* الاستاذة الدكتورة نبيلة ابراهيم استاذة الادب الشعبى بكلية الآداب جامعة القاهرة ، لها العديد من الدراسات فى القصص الشعبى والسير العربية وترجمات لبحوث اوروبية .

مصيره بحيث انها اذا قضت عليه بالشر أو المرض والعجز ، ارتضى هذا الحكم واستسلم له ، أم أنه كان يتدخل فى هذا الحكم بصورة أو بأخرى بحيث يغيره من مجرى الشر الى مجرى آخر يقنعه بحقيقة وجوده ، وبقيمة الحياة التي يحياها ؟

أول ما يقال بصدد الاجابة عن هذه التساؤلات هو أن حقيقة العالم السماوى كانت تأسر الانسان البدائي ، ومثله الانسان الشعبي ، الى درجة انه يحن دائما الى أن يعيش فيما يشبه هذه الحقيقة او يقلدها . واذا كانت حقيقة العالم السماوى مرتبطة كل الارتباط بقدسيته ، فانه يحاول قدر الامكان ان يخلع على المكان الذى يعيش فيه طابع التقديس ، لان هذه القدسية هي التي تشعره بمغزى وجوده وحقيقته . فهو فضلا عن أنه يشعر بعلاقة روحية بينه وبين الطبيعة التي يعيش وسطها لانها تثير في نفسه قدسية العالم السماوى ، فانه يحرص على أن يشيد وسط المكان الذى يسكنه ما يجسد هذه القدسية ، وليكن ضريحا لولي ، أو كنيسة أو جامعا . وبهذا تكتمل قدسية المكان ويصبح صورة مصغرة للعالم السماوى المقدس . ولعل هذا يفسر لنا بناء الانسان القديم للاماكن المقدسة مثل الكعبة والقدس وبابل ، فهي تمثل مع غيرها من الأماكن المقدسة صورة مكررة للنظام السماوى المقدس . ومن ثم كانت بعض هذه الاماكن ، وما يزال بعضها الآخر ، يمثل وجودا حقيقيا لا تتميز به الاماكن الدنيوية الاخرى . ولعل هذا يفسر لنا كذلك الانسان الشعبي على الا يسكن مكانا جديدا ، او يعمر مكانا غير مأهول ، الا اذا اجرى بعض طقوسه ، ولتكن اشعال البخور وقراءة التعاويذ أو الآيات المقدسة ، ولتكن تقديم ضحية عند عتبة المسكن الجديد ، ولتكن دفن تميمة أو حجاب تحت أساس البيت الجديد . ومن البديهي ان الانسان الشعبي يفعل هذا لكي يكون المكان قابلا للسكنى ، اما قبل ذلك ، فانه يكون منتميا الى عالم الفوضى حيث تجد الاشباح والعفاريت مأوى لها . أى أن الانسان الشعبي يستطيع ان يحول الفوضى الى نظام عن طريق اجراء الطقوس ، وبهذا يصبح المكان مقدسا ، ومن ثم تنشأ العلاقة الروحية بينه وبين هذا المكان .

وليست رحلة البطل من الاساطير والحكايات الخرافية للوصول الى شجرة الحياة او التفاحة الذهبية او الاميرة المسحورة أو نبع الخلود ، سوى تعبير رمزى فني عن فكرة الوصول الى المكان المقدس . والطريق الى هذا المكان شاق ومحفوف بالمخاطر ، ذلك ان الوحش المهول يقف هناك متربصا بالبطل . واذا كان هذا الوحش رمزا للفوضى ، فلا بد للبطل من أن يقتله ، لكي تستعيد الحياة نظامها وقدسيتها .

وكما يخلع الانسان الشعبى طابع القدسية على المكان ، فانه كذلك يخلع طابع القدسية على الزمان . والزمان المقدس يعني الزمن الاسطورى الذى لا ينتهي . أى أن الانسان البدائي ومثله الشعبي يصارع التاريخ ، بمعنى انه أحداث متعاقبة لا يمكن تفاديها أو تفادى نتائجها ، بل انه يحن دائما الى الزمن الاسطورى ، الزمن الاكبر حيث بدء كل شيء . وهنا يختلف الانسان الشعبى أساسا عن الانسان العصرى (modern) . فالثانى يحمل عبء الزمن وثقله ، وهو يفكر دائما فى لا مغزى ولا معنى الحياة . ذلك لأن الحياة تصل بكل شيء الى قمة ازدهاره وحيويته ثم تؤول به بعد ذلك الى الفناء . أما الانسان الشعبي الذى يسعى دائما الى الاحساس بوجوده الحقيقي ، فانه لا يريد أن يفقد صلته بالوجود ، ولا يريد ان يقع فريسة الاحساس باللامعنى . وهو يصل الى قمة هذا الاحساس عندما يجد نفسه يعيد ما فعل من قبل ، اى يمارس الطقوس والاحتفالات التي فعلها اجداده . ففي هذه الاحتفالات التي يمارس الجميع فيها طقوسا واحدة ، يشعر الانسان الشعبي حقا انه نغمة في لحن جماعي ، بل في لحن الكون ، هذا

الكون الذى يتجدد دائما بتجدد ليله ونهاره ، وتجدد فصوله ، وتجدد قمره .

الانسان الشعبي (١) اذن يسعى الى تجديد الحياة ، اى محو الزمن الحسى وهذا مانعنيه بحنينه الى الزمن الاسطورى ، اى الزمن المتجدد كما عبر عنه فى اساطيره وما زال يعبر عنه فى احتفالاته وممارساته . ولا يعنى هذا ان الانسان الشعبي لا يشعر بنهاية الاشياء او نهاية فترة ما ، حقا انه يشعر بهذا ، ولكنه سرعان ما يشعر باستمرار الحياة ، ويحن الى الخلق الجديد كما صوره فى اساطيره ، فيقلده او يعيد ذكراه .

وانطلاقا من هذه الفلسفة نستطيع ان نصل الىَ ابعاد طقوسه واحتفالاته الدورية ، وان نكشف عن كنه كثير من ممارساته التي قد تبدو غامضة عندما يعجز الباحث عن ان يجد لها تفسيرا مقنعا .

ويمكننا ان نقسم هذه الاحتفالات الى نوعين : نوع يهدف الىتطهير حياته منالاشباح والامراض والذنوب ، والنوع الآخر يهدف الى تجديد دورة الحياة الطبيعية المرتبطة بالخصب والنماء .

اما النوع الاول فتتمثل طقوسه فى مراسيم التطهر ، وفى الصيام الدورى ، وفي طرد الاشباح والعفاريت من حياة الفرد والجماعة ، وفى تقديم الضحية فى مناسبات معينة ، وغير ذلك .

واما النوع الثاني فتدور حوله كثير من الاساطير والطقوس التي عرفتها شعوب العالم أجمع وما تزال تعيد ذكراها بصورة أو بأخرى.

والواقع ان كلا النوعين من الاحتفالات يهدف الى الاحساس بجدة الحياة واستمرارها ، وخلوها من عوائق الاحداث التى نعبر عنها بالتاريخ .

فقد يمارس الانسان الشعبي الزار فىأوقات دورية اثر احساسه بوجود عائق بداخله يفسره بانه تملك الجن له . وهذا العائق يحول بينه وبين الاحساس بالارتياحفىحياته . وغالبا ما ينتابه هذا العائق فى الحقيقة اثر حادث معين . ولكن لان الانسان الشعبي ينزع دائما الى محو الزمن الحسي والعيش في الزمن الاسطورى ، حيث يتجدد كل شيء ، فانه لا يفكر فى هذا الحادث ، بل انه لا يتذكره . وقد عبر احد أبناء الشعب المصرى عن شعوره اثر اجرائه طقس الزار ، بانه يشعر انه يولد من جديد . فهذا طقس يمارس بقصد طرد الاشباح من عالم الانسان ،ولكن الهدف البعيد منه في الحقيقة ، هو البعث الجديد على نحو ما يحدث في العالم الاسطورى ، عندما تبعث الحياة بعد القضاء على العناصر الشريرة .

ويرتبط بفكرة تعلق الانسان الشعبيبالزمن الاسطورى المتجدد موضوع تقديسه للاموات. فحرص الانسان الشعبي على زيارة الاموات وتقديم القرابين لهم بصفة دورية ، وحديثه عن ان الاموات يزورونه فى الاحلام ، ويبلغونه قولا يتعلق بموضوع يعايشه ، وقد يتنبأون بما يمكن ان يحدث فى المستقبل ، كل هذا يعنى ان الاموات قد انتفت عنهم الصفة التاريخية ، وانهم يعيشون معه على الدوام . ولهذا يتحم تجديد العهد بينه وبينهم في فترات دوريةحتى يعيشوا معا فى تصالح دائم .

وحنين الانسان الشعبي الى الزمن الاسطورى المتدفق جعلهيهتم بالاحتفالبتجديد دورة الحياة ، وذلك عن طريق احتفالاته

---

(١) سوف نلتزم بهذا الاصطلاح الذى نعنى به بشيءمن التجاوز كلا من الانسان البدائى والانسان الشعبى الذى يعيش مرتبطا بالعادات والمعتقدات والتقاليد الجمعيةالمتوارثة .

بالخصب والنماء . وهو في هذه الاحتفالات يشخص ما رواه في أساطيره عن الحياة المتجددة في العالم العلوي .

فقد احتفلت جميع شعوب العالم ، وما تزال تحتفل بصورة أو بأخرى ، بعودة النضرة للحياة ، اما بعد صيف جاف حار أصاب المزروعات بجفافه ، او بعد شتاء قارس قتل المزروعات بصقيعه . ففي كلتا الحالتين كانت الشعوب تحيي ، في قداسة بالغة ، الاحتفالات الدينية ، وتجرى الطقوس التي تتوسل عن طريقها الى الآلهة لكي تعيد للحياة نضرتها على الدوام . ويعد الرقص عنصرا هاما في اجراء الطقوس ، لان الغرض منه هو اثارة الطبيعة كي تسقط امطارها فتمتلىء الانهار بالمياه ، ويرتوى الزرع وتعود للحياة نضرتها .

وقد كان المصريون القدماء يحتفلون بفيضان النيل كل عام ، بان يلقوا فيه بعروس مزدانة لكي يتزوجها النيل ، فيعود الى حيويته ونشاطه . ومعنى هذا ان النيل الذى قد يصل نشاطه الي حد الانهاك ، لابد ان يعود الى كامل قواة وحيويته عن طريق الزواج الجديد.

وحول هذا المغزى تدور أسطورة ادونيس . فلقدكان ادونيس شابا جميلا اغرمت به الالهة افروديت . وذات يوم هاجم ادونيس ثور وحشي واصابه بجرح افضى به الى الموت . وحزنت افروديت على موت حبيبها كل الحزن ، واخذت تتضرع للاله زيوس ان يعيد الحياة الى ادونيس . فاشفق زيوس عليها ومنح ادونيس منحة العودة الى الحياة ، ولكن في فترة معينة فقط من السنة . وتشير الطقوس التي كانت تؤدى للتعبير عن موت ادونيس وعن عودة الحياة اليه ، كما يشير توقيت الاحتفال وطابعه ، الى ان ادونيس لم يكن مجرد اله ، بل كان تجسيدا للزمن المتجدد الذى يؤدى الى سلامة الطبيعة واحيائها على الدوام . فقد كان الاغريق يحتفلون بهذا العيد في الربيع . وكان يحتفل به في فلسطين في شهر يونيه عندما يصل ازدهار النبات الى قمته . ويقع موت ادونيس في التقويم السرياني المقدوني في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر كما يقع بعثه في اليوم الاول من شهر اكتوبر ، وهو بداية العام الجديد في هذا التقويم . وكان الاحتفال بموت ادونيس يتميز بعويل النساء عليه بصفة خاصة ، وذلك لخوفهن من ان يصبن بالعقم ، حيث ان الجدب يشمل كل مظاهر الحياة (٢) .

ويذكرنا عويل النساء على ادونيس بما روى من عويل البابليين والكنعانيين بسبب اختفاء الههم تموزعنهم . وقد نجم عن ذلك ان حل الخراب بالارض ، واصاب العقم الحيوان والانسان . عند ذاك رفع الناس اصواتهم بالبكاء والعويل متوسلين الى الاله تموز ان يعود اليهم ،وسمع الاله تموز بكاءهم ،فاشفق عليهم ، وقرر ان يضع حدا لمتاعبهم بأن يعود الى الارض فترة قصيرة في كل عام . وها هي ذى بعض عبارات هذا العويل ..

بكاؤنا يسمع في كل مكان في الارض ، مرتفعاتها ومنخفضاتها لعله يصل الى بيت الاله .

انه عويل من أجل النبات الذى كف عن النمو

ومن أجل الشعير الذى ذبل

ومن اجل الناس والقطيع ، فقد كفوا عن التوالد .

ومن اجل موت الشباب والاطفال

---

(٢) Jessie L. Weston : From Ritual to Romance. P: 47 (New York 1957).

ومن أجل النهر الذى كف عن الفيضان
ومن أجل السمك الذى اختفى

ومن أجل الغابات التي لم يعد ينمو فيها شجر التمرسك

ومن أجل مخازن البيوت التي لم تعد تستقبل النبيذ والعسل

ومن أجل البرارى التي لم تعد تنبت فيها الحشائش

ومن أجل القصر الذى ولت عنه بهجة الايام الماضية .

واذا كان النص لم يشر الى احتفالات الشعب ببعث الاله تموز ، الا ان تكملة النص تشير الى عودة الخصب الى الحياة مرة أخرى، فقد ورد فيه :

لقد ترعرعت الحشائش حيث كانت قد اختفت

وتدفقت المياه وعاد الناس يجرعونها
واستعاد الناس بناء الحظائر بعد أن كانت قد هدمت (٣) .

وقد تعود البابليون احياء ذكرى الصراع بين تيامات ، وحش البحر الذى يمثل الفوضى ، والاله مردوك الذى يرمز الى النظام ، وقد تمكن مردوك من ان يقتل تيامات، ثم شرع بعد ذلك فى خلق الكون والانسان . وقد كانت الطقوس التي تحيى ذكرى هذه الحادثة الاسطورية ، تجرى على النحو التالي :

١ ــ قضاء فترة من التطهر والتكفير عن الذنوب، وتقديم الضحية وهي تمثل الفترة التي كان فيها مردوك أسيرا فى الجبال عاجزا عن التخلص من سيطرة تيامات عليه . وكل هذا يرمز لمرحلة الفوضى التى سبقت خلق الكون وتنظيمه .

٢ ــ يدور الصراع بين فريقين احدهما يمثل مردوك والآخر تيامات ، ويصيح الناس بفريق مردوك ان ينتصر ، بينما يدعون على الفريق الآخر بالفناء .

٣ ــ انتصار فريق مردوك الذى يعني الخلق الجديد للعالم والانسان وما يعقب هذا من احتفالات (٤) .

ويحتفظ اليابانيون فى تراثهم بذكرى « تاما » ، والتاما عنصر روحي يعيش مع الانسان ومع الأموات ومع القديسين . فاذا أوشك الشتاء على الانقضاء مسلما دورة الحياة الى الربيع : تهجيت التاما وحاولت ان تترك جسم الانسان الحي ، كما تحاول تاما الاموات ان تغزو مساكن الاحياء . والغرض من هذا الاحتفال المشبع بالمغزى النفسي الفسيولوجي هو تثبيت تلك المادة الروحية فى الجسم . ذلك ان النفس الانسانية التي يطول كبتها فى موسم الشتاء ، تتهيج عندما تشعر بمقدم الربيع ، موسم الازدهار والاخصاب . ومن ثم يجرى هذا الاحتفال لوضع حد لتهيجها لكي تمارس نشاطها فى نظام مع مطلع الميلاد الجديد .

كل هذه الشعائر والطقوس هي فى تكوينها البنائي نوع من سحر المشاركة كما شرحه فريزر فى كتابه « الفصن الذهبي » . وهي تنبع اصلا من حاجة الانسان الشعبي الى تحرير نفسه من اسر الاحساس بالزمن عن طريق استحضار النموذج القديم الذى يجعله يشعر بأنه معاصر للخطة الميثولوجية لبداية الحياة .

---

(٣) Op. Cit. P. 39-40.

(٤) Mircea Eliade : Cosmos and History, P. 57, 58 (New York, 1959).

وهو يشعر بالحاجة الى العودة الى تلك اللحظة أكبر وقت ممكن ، لكي يجدد نفسه ويجدد حياته . وسواء كانت تلك الطقوس جمعية أو فردية ، وسواء كانت دورية او تلقائية ، فانهاتحتوى فى بنائهاعلى معنى الاحياء عن طريق تكرار الفعل القديم ، الذى غالبا مايكون فعلا قد شارك فى تكوين الكون لأول مرة . وكل مايهمنا من سرد هذه الامثلة هو تاكيد نزوع الانسان الى محو الزمن الحسى .

واكثر ما يؤكد لنا هذه الفلسفة ، تعلق الانسان الشعبي منذ القدم بالقمر ، بحيث صاغ حوله الاساطير التي سنشير اليها وشيكا.

فاذا كان القمر قد اسعف الانسان بقياس الزمن بطريقة حسية ، وذلك قبل ادراكه للحساب الشمسي بزمن طويل ، فان القمر فى الوقت نفسه رمز للعودة الأبدية . انه النمط القديم للاستمرار الذى يحن اليه الانسان الشعبي ويصارع الحياة من أجله . فكما ان القمر يبزغ ثم يكتمل ثم يتمزق ويختفى ثم يعود للحياة مرة اخرى ، فكذلك يولد كل شيء فى الحياة ، وينمو ثم يعود للحياة مرة اخرى .

(٢)

وفى مرحلة تالية لذلك كان ينظر الى الملك عند شعوب الحضارات القديمة ، بل وعند بعض سكان افريقيا الاصليين فى العصر الحاضر ، كان ينظر اليه بوصفه ممثلا للاله .

فقد كان الملك عند الاغريق يعد ممثلا للاله زيوس . وقد كانت الواجبات الملقاة على كاهل هذا الملك من المشقة بمكان ، بحيث لا يمكن ان يقوم بها سوى رجل خال من اى عيب جسدى او عقلي ، اى لابد ان تتوفر لهذا الملك الحيوية والشباب طالما كان يحكم شعبه . لقد كان شعبه يطلب منه ان يكون مهابا من الرجال الاقوياء ، وان يستطيع ان يحكم بالعدل بينهم ، وان تنبت الارض طول مدة حكمه الشعير والقمح وتحمل الاشجار الفواكه والثمار الطيبة . ويلد القطيع الصغار ، كما يتوالد السمك فى البحار ، وان يعيش الشعب فى رخاء دائم . والملك يقدر على تحقيق كل هذا لشعبه اذا كان خاليا من اى عيب جسدى او عقلي ، اما اذا كان مريضا على نحو ما ، ابتليت مملكته بالمرض . « ولهذا فقد حذرت النبوءة الاسبرطيين من الحكم الاعرج » (٥) .

وقد روى فريزر ما يشبه هذا التصور عند الاغريق ، عن قبيلة الشلوك التي تسكن النيل الابيض فى منطقة تمتد من الشاطيء الغربي عند مدينة كاكا فى الشمال الى بحيرة نو فى الجنوب ، كما تسكن الشاطيء الشرقي من النهر من فاشودة الى التوفيقية . فملكهم الذى كان يقيم فى فاشودة ، ينظر اليه بوصفه تجسيدا للبطل المؤله « نياكنج » الذى كان اول من استوطن بقبيلته هذا المكان وفقا لاسطورتهم . وقد كان هذا البطل يؤله بوصفه مانح المطر . وعلى الرغم من تقديس القبيلة للملك على هذا النحو فانه لم يكن يسمح له بأن يصير هرما ضعيفا ، والا سرت عدوى الضعف الى قبيلته ، فيمرض القطيع وتذبل المحاصيل ويموت الرجال باعداد كبيرة ، واحدى علامات ضعف هذا الملك عجزه عن تحقيق رغبات زوجاته اللاتي يمتلك منهن العدد الكبير . فاذا حدث هذا رفعت الزوجات شكواهن الى رؤسائهن الذين يشرعون على الفور فى تعريض الملك العجوز للقضاء ، واحلال ملك شاب قوى مكانه (٦) .

---

(٥) From Ritual to Romance : P 58.

(٦) Frazer : The Golden Bough, Vol. V. PP. 17 et seq.

وكل هذا يعنى ان الملك لم يكن مجـردرجل يحكم ، بل كان تجسيدا لقوة الهيـة مرتبطة بخصب الارض ورخاء الناس ، وقدرة الانسان والحيوان على الاخصاب. انه نصف اله ونصف انسان ، ومركزه يقع بين الناس والارض مـن ناحية ، والقوة الخفية التي تتحكم فى مصائـر الناس من ناحيـة اخرى . وسواء كان هـذا الملك هو ادونيس او تموز ، او كان ملكا حقا ، فان نسيج قصته واحد ، وطقوس الاحتفـال بموته وبعثه واحدة . ويتألف نسيج القصـة اساسا من مجموعة من المتناقضات هي الموت والبعـث ، والجـدب والخصـب ، والحزن والبهجة .

وقد ظلل تأثير هـذه الاساطير ممتدا حتى العصـور الوسطى . فقـد شاع فى القصـص الرومـانسي فى هـذه الفتـرة فى أوروبا نمط قصصي هو قصة « الملـك الصـياد والكأس »

The Fisher King and the Grail

وقد درست **جيسى وستون** « هذه القصة فى كتابها القيم « مـن عصر الطقوس الى العصر الرومانسي » ، بقصد الكشف عن أصول هذه القصة ، وتفاصيل الطقوس والاساطير القديمة الخاصة بتجدد الحياة ، يؤكد ان قصة الملك الصياد والكأس ليس سوى امتداد للاساطير القديمة . ولا يرجع ظهور هذه القصة فى الادب الـرومانسى فى العصور الوسطى الـى مجرد تقليد هذا الأدب الشعبي القديم واستيحائه لبعض نماذجه ، بل يرجع الى امتداد الاعتقاد القديم فى حد ذاته ان الحياة تتجدد كلما آل بها الزمن الى الهرم ، وان هذا التجدد يحتاج الى اجراء طقوس معينة لكي تعود القوة والحيوية الى الشخوص الاسطورية التي يرتبط شبابهـا بشباب الارض ومن عليها .

وتتلخص هذه القصة فى اكمل رواياتها فى ان الملك الصياد كان يعاني من ضعف بسبـب مرض او بسبب الهـرم . ولو كان ضعف هذا الملك يعنيه وحده ، لما اهتم بذلك احد ، ولكن هذا الضعف الجسدى ، وربما العقلي كذلـك الذى انتابه ، هدد بلاده بالخراب. وكان يتطلب الامر ، لكي يستعيد الملك قواه وحيويته ، ان يرحل فارس شاب الى قلعة بعيدة يكتنفها الغموض ليحضر منها السيف والكأس . ومـا ان وطئت قدماه هذا المكان حتى بدت له اشياء يقف لها شعر الرأس رعبـا . فقد بدا لـه فى السكون والظلمة المخيمة على المكان ، جسـد ميت ، كما امتدت اليه يد مدمية من مكان مجهول ، والى جانب هذا سمع اصواتا مرعبة تحذره من الاقتراب من هدفه ، ولكن الفارس البطـل ، استطاع رغم كل ذلـك ، مستعينا بتعاويـذه السحرية ، ان يصل الى مطلبه . ثم راح بعـد ذلك فى سبات عميق . فلما استيقظ وجد أن القلعة قد اختفت ، وابصر نفسه يسير وسط ربوع خصبة مليئة بالورود . وعندما عاد الى بلده ، حيث ترك الناس يبكون ويولولون بسبب الخراب الذى يتهددهم ، وجد المأتم قد انقلب الى فرح وسعادة ، ووجـد الناس ينتظرون قدومه لكي يستقبلوه استقبال البطل الـذى استطاع أن يعيد للملك شبابـه ولحياتهـم الخصب بعدان تمكن من الحصول على الكأس والسيف .

هذه القصة التى وردت فى ملحمة **الملك آرثر** وفى قصـة برسيفال ، وربما فى غير ذلك مـن القصص الـذى شاع فى العصـور الوسطى ، تشبه ولا شك الاساطير الطقوسية التي سبق أن أوردناها .

واذا كان الباحثون قد انتهوا الى ان الكأس يرمز للانثى ، وان السيف يرمز للذكر ، فان دواء الملك الذى يسعى الفارس فى الحصـول عليه اذن ، يتمثـل فيما يمكن ان يعيد للملك قواه الجنسية لكي يكون قادرا على الاخصاب فتخصب الارض ، نتيجة لذلك ، بتأثير سحر المشاركة .

ولا ننسى أن نذكر فى هـذا المجال ان لقب « الملك الصياد » هو فى حد ذاته الرمز الـذى تدور حوله الاسطورة بأكملها . ذلك ان السمكة تعد رمزا للاخصاب منذ العصور القديمة حتى اليوم ومعنى هـذا ان الملك الـذى يرتبـط شباب الارض بشبابه ، ينبغي ان يكون ممتلكا لمصدر الاخصاب وما يتولد منه ، وهو الماء .

على أن أساطير الخصب القديمـة لم يقف تأثيرها عند هذا الحد، بل مايزال تأثيرها وتأثير المعتقد نفسه جليا فى الحياة الشعبية المعاصرة وفى التفكير الشعبي بصورة او بأخرى . فاحتفالات الربيع التي تجرى فى جميع أنحاء العالم ، ومن بينها احتفالنا الشعبي بشـم النسيـم ، ليس سوى تكرير للطقوس القديمة، وان غاب المضمون الديني المقدس عن هذه الاحتفالات . وقد اعتاد الاطفال فى بعض قرى مصر ان يصنعوا عروسة من الخشب او القماش ويلبسونها ، ويطوفوا بها فى الشوارع ليلة الاحتفال بشم النسيم ، ثم كانوا يحرقون العروس فى نهاية الاحتفـال ويلقوا بها فى النيل وهم يغنون :

عروسة شم النسيم

كل سنة وانتم طيبين

عروسة شم النسيم

سنة بيضه علىّ حاضرين

قوم اصحى يا وخم

قوم اترك البلد

فالعروسة هنا رمز للسنة المنصرمة التى اصابها الهرم بحلول فصل الشتاء ، ولابد لهذه السنة ان تتجدد بحلول فصل الربيع . ولهذا فان العروسة يلقى بها فى الماء لانه اصـل كل شىء حي كما سبق أن ذكرنا ، ومن هنا نفهـم الصلة بين الاغنية وحرق العروسة، اذ ان الاغنية تتمنى للناس بعد القضاء على الشىء البالى ، عاما كله خير وبركة ، مليئا بالحيوية والنشاط،

وليس احتفال الشعب بالزواج وفقا لطقوس معينة ، ودعاؤهم للعروس ليلة زفافها بقولهم : « ربنا يجعلك شجرة تطرح وتملا المطرح » ، سوى تعبير عن الاحتـفال باستمرار الحيـاة المتمثلة فى جيل مخصب يعقب جيلا أصـابه الجدب والهرم ، بل أن الربط بين الشـجرة المثمرة والعروس المخصبة لأكبر دليل على حنين الشعب لان يرى الاخصاب المتجدد فى كل مظاهر الحياة .

ويحتفل الشعب بميلاد الطفل بطقوس معينة حيث أن هذا الميلاد رمز لاستمرار الحيـاة . ولهذا فان الشعب يحيط هذا الميلاد الجديد بكل ما يضمن له البقاء والاستمرار ، فهـو يحميه من الارواح الشريرة عن طريق تعاويذه وطقوس سحره ، وهو يجرى له احتفالا خاصا فى اليوم السابع من ميلاده عندما تفارقه الملائكة وفقا لاعتقاده ، بعد أن رعته من الشر الذى يكون معرضا له أكثر ما يكون فى السبعة أيام الاولى من ميلاده . وفى هذا الاحتفال يدق الهاون حتى تهرب الارواح الشريرة التى تفزع من صليل النحاس ، كما انه يضع بجانبه الماء من القلة أو الابريق ، وكذلك يضع سبع حبات فى الماء كي تنبت . وهذا تعبير رمزى مجسـد مغزاه أن تكون حياة الطفل جارية جريان الماء، ونضرة نضرة الزرع .

وحنين الشعب الى الزمن الاسطورى يدفعه لان ينتزع الشخصيات الجذابة التى تروقه لسبب أو لآخر من اطارها التاريخى ويضـعها فى قالب أسطورى . ومن هنا ظهرت أساطير **هرقل وجلجامش ومارجرجس ، والسـيد البدوى ، وعنترة** وغيرهم . وكلها ينزع الى تشكيل الحدث الواقعى فى شكل أسـطورى ، بحيث يصبح هذا الحدث الاسـطورى هـو الأصل، والحدث الواقعى صورة ممسوخة له. ونلاحظ أن كل هذه الشخوص صارعت القوى المهولة سواء كانت تنينا أو غيره ، لأن هـذا الفعـل وحـده يكفى أن يزج بهـا فى الزمن

الاسطورى ويبعدها عن الزمن التاريخى . وكلما ارتبطت الشخصيات بطقوس معينة تمارس دوريا على سبيل الاحتفال بذكرها ، عاشت هذه الشخصيات على الدوام فى ضمير الشعب. ولهذا كانت شخصية القديس مار جرجس والسيد البدوى على سبيل المثال ما تزال وسوف تظل ماثلة فى نفوس الشعب المصرى ، فى حين أن شخصيات السير الشعبية مثل **الظاهر بيبرس وعنترة** قل حجمها بمجرد اختفاء الانماط القصصية التى نسجت حولها، وذلك لعدم ارتباط تلك الشخصيات بطقوس معينة .

واذا قام الانسان الشعبى بعمل تتعلق حياته بنتيجته ، سرعان ما يشعر بسيطرة العالم المقدس عليه ، او لنقل انه سرعان ما يتجاوز العالم المعلوم الى العالم الغيبى ، حيث يعيش فترة فى الزمن الاسطورى المقدس ، فقد حكى لنا صياد من منطقة رشيد الساحلية فى مصر عن تجربته الشخصية عندما يخرج للصيد من رشيد متوغلا فى أعماق البحار فقال : عندما نقف على الشاطىء ، وقد استعد المركب للاقلاع نوجه بصرنا الى ضريح الشيخ أبى مندور الذى يقع قبالتنا على الساحل الآخر . فاذا بشعلة خافتة من الضوء تخرج من هذا الضريح وتتجه الينا . عند ذاك نتوكل على الله ونبحر والضوء ملازم لنا كأنه النور الهادى لنا فى الطريق . ويظل هذا الضوء يصحبنا حتى نجتاز المنطقة الخطيرة . وعند ذاك ينحسر الضوء ويرتد الى الضريح ، وبعد ذلك نشتم رائحة بخور عطر تنتشر فى الجو .

وقد يبدو هذا السلوك ساذجا لمن هو بعيد عن روح الحياة الشعبية ، ولكننا عندما نتعمق فى طبيعة الانسان الشعبى ، ندرك أن هذا السلوك ينتمى الى فلسفته العامة فى اكساب كل ما هو دنيوى طابعا دينيا مقدسا ، لان الحقيقة الكبرى لا تتمثل الا فى هذا الشىء المقدس . ومن ثم فقد نقل الحدث الحسى الى الزمن اللا حسى الاكبر حيث تقضى القوة الخيرة على القوة الشريرة ، فتعود للحياة صيرورتها الدائمة ونظامها .

(٣)

ويتنوع تجسيد الشعوب لفكرة الزمن اللامتناهى بحيث تأخذ أشكالا عدة تكون منبعا لتراث شعبى خصب . وقد سبق أن رأينا كيف انتشرت فى التراث الغربى حتى العصور الوسطى فكرة الملك المقدس الذى يتحتم عليه أن يظل شابا مليئا بالحيوية والا قضى عليه بالموت . اما فى مجتمعنا العربى ، فقد تجسدت فكرة الزمن اللامتناهى فى شخصية **الخضر** وفيما صيغ حولها من روايات .

فمن هو الخضر ؟ ولماذا سمى بهذا الاسم ؟ يفاجئنا هذا الاسم فى شرح المفسرين للآيات القرآنية التى تحكى عن مقابلة **موسى** عليه السلام للشخصية المجهولة عند مجمع البحرين على نحو ما ورد فى سورة الكهف فى قوله تعالى « **واذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى ابلغ مجمع البحرين أو امضى حقبا . فلما بلغا مجمع بينهما ، نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا . فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال أرأيت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما أنسانيه الا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجبا . قال ذلك ما كنا نبغ ، فارتدا على آثارهما قصصا . فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما** » .

وقد أورد الطبرى على عادته روايات عدة تشرح سبب نزول هذه الآيات وتفسرها فى الوقت نفسه . ومن بين هذه الروايات أورد رواية هذا نصها : « ان موسى هو نبى بنى اسرائيل سأل ربه فقال : أى رب ان كان فى عبادك أحد هو أعلم منى فادللنى عليه . فقال له : نعم فى عبادى من هو أعلم منك . ثم

نعت له مكانه وأذن له فى لقيه . فخرج موسى ومعه فتاه ومعه حوت مليح وقد قيل له : اذا حيى هذا الحوت فى مكان فصاحبك هنا لك وقد ادركت حاجتك. فخرج موسى ومعه فتاه، ومعهما ذلك الحوت يحملانه. فسار حتى جهده السير وانتهى الى الصخرة **والى ذلك الماء ، ماء الحياة ، من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت الا حيى** . فلما نزلا ومس الحوت الماء حيى فاتخذ سبيله فى البحر سربا . فانطلقا . فلما جاوزا منقلبه قال موسى : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا . قال الفتى وذكر : « ارايت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان ان اذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا . » قال ابن عباس : فظهر موسى على الصخرة حتى انتهيا اليها . فاذا برجل متلفف فى كساء له : فسلم موسى فرد عليه السلام ثم قال له ، ماجاء بك ان كان لك فى قومك شغل ؟ قال له موسى: جئتك لتعلمنى مما علمت رشدا . قال : انك لن تستطيع معي صبرا . وكان رجلا يعلم علم الغيب قد علم ذلك . » (٧)

وفى رواية اخرى ان رجلا من بنى اسرائيل سأل موسى : « هل على الارض أحد اعلم منك يارسول الله ؟ قال : لا . فبعث الله جبرئيل الى موسى عليهما السلام فقال : ان الله يقول: وما يدريك اين أضع علمى . بل ان على شط البحر رجلا أعلم منك . فقال ابن عباس : هو الخضر . فسأل موسى ربه ان يريه اياه . فأوحى الله اليه ان ائت البحر فانك تجد على شط البحر حوتا . فخذه فادفعه الى فتاك ثم الزم شط البحر . فاذا نسيت الحوت وهلك منك ، فثم تجد العبد الصالح الذى تطلب » . (٨)

وروى ان **ابن عباس** تمارى هو **والحر بن قيس بن حصن الفزارى** فى صاحب موسى : فقال ابن عباس : « هو خضر . فمر بهما **ابى بن كعب** فدعاه ابن عباس فقال : انى تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسى الذى سأل السبيل الى لقيه . فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر شانه ؟ قال : انى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : بينا موسى فى ملأ من بنى اسرائيل اذ جاءه رجل فقال : تعلم مكان أحد اعلم منك؟ قال موسى : لا . فأوحى الله الى موسى : بل عبدنا خضر . فسأله موسى السبيل الى لقيه . فجعل الله له الحوت آية وقيل له : اذا فقدت الحوت فارجع فانك ستلقاه . فكان موسى يتبع أثر الحوت فى البحر. فقال فتى موسى لموسى : أرايت اذ أوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت . قال موسى : ذلك ما كنا نبغ، فارتدا على آثارهما قصصا ، فوجدا عبدنا خضرا ، وكان من شأنهما ما قص الله فى كتابه . » (٩)

من كل ذلك نستخلص ما يلى :

أولا : ان الآيات القرآنية لم تذكر اسم ذلك العبد الذى لقيه موسى ، بل اقتصرت على الاشارة الى كنهه فى قوله تعالى : **فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما** » . وعندما شرع المفسرون فى شرح الآية ، والحوا على تحديد اسم هذا العبد حتى تتحدد شخصيته ويصبح تجسيدا لطبيعة مميزة بأفعالها وروحانياتها . وهذه الطبيعة لا تنتمى الى الطبيعة البشرية كلية ، بل انها تخرج عن دائرة الانبياء المعروفين لتدخل فى مجال أشد قربا الى الطبيعة الالهية ، وأكثر ابتعادا عن الطبيعة الانسانية . وعندما سميت

---

(٧) الطبرى : جامع البيان عن تاويل آى القرآن : جـ ١٥ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

(٨) نفسه ص ٢٨١ .

(٩) نفسه ص ٢٨٢

هذه الشخصية باسم أطلق عليها اسم الخضر وليس هناك شك في أن الاسم يعنى الخضرة أى النضرة الدائمة .

ثانيا : ان اكثر ما يميز هذه الشخصية هو وصولها الى العلم الغيبى . وعلى الرغم من أن موسى نبي الا ان الآيات شاءت أن تؤكد أن نبوته لم ترفعه كلية عن مستوى قدرات البشر العاديين . ولهذا فان أول ما يفاجئنا فى الآيات، ادراك هذا العبد بانه أرفع قدرا من موسى ، ولم ينس لذلك أن يذكر موسى بهذا الامر منذ بداية مقابلته له وطوال رحلته معه : « قال له موسى : **هل اتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا . قال انك لن تستطيع معى صبرا . وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا . قال ستجدنى ان شاء الله صابرا ولا اعصى لك أمرا. قال فان اتبعتنى فلا تسالنى عن شيء حتى احدث لك منه ذكرا** » . فلما الح موسى على أن يعرف منه ما عجز علمه عن ادراك مغزاه ، ذكره العبد أكثر من مرة بوعده له بانه لن يتدخل فى شئونه فكان موسى يعتذر له المرة تلو الاخرى . حتى اذا نفد صبر موسى والعبد معا ، شرع العبد فى ازاحة الستر الذى يقف حائلا بين موسى وبين ادراك الحقيقة الغيبية ، ولكنه فارقه واختفى اثر ذلك . « **قال هذا فراق بينى وبينك ، سانبئك بتاويل ما لم تستطع عليه صبرا** » . وكان العبد أو الخضر، فى أثناء تفسيره لمغزى ما أقدم عليه من فعل يبدو فى ظاهره منكرا ، وان كان فى باطنه فعلا طيبا ، ينسب الارادة لنفسه : « **فاردت أن اعيبها** » « **فخشينا ان يرهقهما طغيانا وكفرا** » « **فاردنا ان يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة واقرب رحما** » . حتى اذا جاء الى نهاية تفسيره « ذكر ان الارادة الالهية هي التى أودعته سرها » : « **وما فعلته عن امرى** » . ومعنى هذا انه بعد ان منح هذا السر الالهى ، اصبحت له قدرة التصرف وفقا لما ينجلى له باطن الامر .

ثالثا : ان العلامة التى أعطيت لموسى للتعرف على هذا العبد المجهول ، تحددت أولا فى العثور عليه فى مكان ما ، سمى بمجمع البحرين ، واثر حادث غريب هو ان السمكة المملحة التى كان يحملها فتى موسى لابد أن تحيا اثر تسربها فى البحر . ولهذا عندما أعلم الفتى موسى بأن السمكة تسربت فى البحر ، على نحو ما ورد فى الآية الكريمة : « **أرأيت اذ اوينا الى الصخرة فانى نسيت الحوت وما انسانيه الا الشيطان، أن اذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا .** » فرد موسى قائلا على الفور : « **ذلك ما كنا نبغ** » ولعل هذا ما دفع بعض المفسرين لأن يوضح طبيعة الماء الذى تسربت اليه السمكة ، أو بالأحرى الحوت ، بقوله : « فسار (أى موسى) حتى جهده السير وانتهى الى الصخرة والى ذلك الماء ، ماء الحياة ، من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت الا حيى . فلما نزلا ومس الحوت الماء حيى « **فاتخذ طريقه فى البحر سربا** » . والواقع ان حتمية وجود العبد الصالح أو الخضر عند هذا الماء بعينه الذى حيى فيه الحوت يدعو الى التساؤل : هل هناك علاقة بين عودة الحياة الى الحوت اثر لمسها لهذا الماء ، وبين وجود الخضر فى هذا المكان ؟ وبمعنى آخر : هل يعد هذا العبد الصالح خالدا لكونه كان يعيش عند نبع الخلود الذى شرب منه بالضرورة ؟ وهل اصطلح ، لهذا السبب بعينه ، على تسميته بالخضر أى الذى يتصف بالنضرة الدائمة ؟ هذا على الاقل ما رسخ فى نفوس الشعوب الاسلامية ، وساعد على أن تعيش هذه الشخصية فى ضمائر الناس بوصفها تجسيدا للزمن اللامتناهى .

ونحاول الآن أن نرى كيف استغلت هذه الشخصية فى الروايات الشعبية .

لعب **الخضر** دورا مهما فى حياة بعض الشخصيات التاريخية البارزة التى نسج حولها القصص الشعبى . ومن تلك الشخصيات شخصية ذى القرنين التى ورد ذكرها فى القرآن

الكريم . ووفقا للرواية الشعبية المدونة التى رواها وهب بن منبه فى كتاب « التيجان فى ملوك حمير » عن ذى القرنين ، ان الصعب ذاالقرنين ـ كما يسميه ـ رأى فى مطلع حياته ، وقبل ان يقوم بمغامراته العجيبة ، رأى رؤى غريبة على مدى اربع ليال على التوالى . فقد رأى فى الليلة الأولى « أنه يرقى جبلا عظيما منيعا لا يسلك فيه سائر من هول مارأى ، اذ أشرف على جهنم وهي تحته تزفر وامواجها تلتطم » ورأى فى الليلة الثانية « كأنه نصب له سلم الى السماء ورقى عليه ، فلم يزل يرقى حتى بلغ الى السماء ، فسل سيفه ثم علقه مصلتا الى الثريا ، ثم أخذ بيده اليمنى الشمس وأخذ بيده اليسرى القمر ، ثم سار بهماوتبعته الدرارى والنجوم ثم نزل بهما الى الارض ، فلم يزل يمشى بهما وتبعته النجوم فى الارض » وفى الليلة الثالثة رأى « كأنه جاع جوعا شديدا وظهر الى الارض فصارت له غذاء ، فاقبل عليها يأكل جبلا جبلا وارضا أرضا حتى أتى عليها كلها ، ثم عطش فاقبل على البحاريشربها بحرا بحرا حتى أتى على السبعة أبحر . ثم أقبل على المحيط يشربه فلما أمعن فيه اذا هو بطين وحمأة سوداء لم تسغ له بما أتاه . فلما نام فى الليلة الرابعة « رأى كأن الانس والجن أتوه من الارض كلها حتى جلسوا بين يديه ، ثم اقبلت البهائم والانعام من الارض كلها حتى جلست بين يديه . ثم اقبلت الوحوش من الارض كلها حتى جلست بين يديه ، ثم أقبلت الطير كلها حتى أظلته ، واقبلت الهوام من جميع الارض كلها حتى حفت به ، ثم اقبلت الرياح حتى استدارت فوقه » (١٠)

وكان من الطبيعى أن يشعر ذو القرنين بقلق بسبب هذه الرؤى ، ولهذا فقد سعى الى من يفسرها له . وأشار عليه أحد حكماء قومه بقوله : « ليس على الارض من يفسر تأويل رؤياك الا نبي بيت المقدس من ولد اسحق ابراهيم الخليل . « فاستعد الاسكندر لمقابلته» فلما نزل بيت المقدس سأل عن النبى الذى ذكر له ولم يطلب شيئا غيره حتى ظهر عليه . قال له الصعب : أنبي أنت ؟ قال له موسى الخضر: نعم . عند ذلك قص عليه ذو القرنين ما رآه فى رؤياه . فاعلمه الخضر بأنه مقدم على مغامرات وفتوحات وانه سيصطحبه فيها . وسار ذو القرنين يفتح البلاد البعيدة التى يسكنها أقوام غرباء والخضر بصحبته . وكان كلما عنّ له أمر من الامور ، سأل الخضر ، وكان الخضر يجيبه فى غير تعنت . حتى اذا اقتربا من صخرة ، حاول ذو القرنين أن يرقاها عدة مرات ، ولكنها كانت فى كل مرة تنتفض وترتعد وتقعقع . فلما دنا منها الخضر سكنت فرقى عليها ، فلم يزل يرقى وذو القرنين ينظر اليه والخضر يطلع الى السماء حتى غاب عنه . فناداه مناد من قبل السماء . امض أمامك فاشرب فانها عين الحياة ، وتطهر فانك تعيش الى يوم النفخ فى الصور ، ويموت أهل السماوات وأهل الارض ، فتذوق الموت حتما مقضيا ... فلما رجع الخضر الى ذى القرنين، قال له : ياذا القرنين انى شربت من ماء الحياة وتطهرت منه وأعطيت الحياة الى يوم النفخ فى الصور وموت أهل السماوات والارضين ثم أموت حتما مقضيا ، ومنعت أنت ذلك ولك مدة تبلغها وتموت ، فارجع فليس بعدهامزيد لانس ولا جن » (١١)

ولم تقف هذه الحقيقة ، رغم هولها ، دون مواصلة ذى القرنين لمغامراته فى العالم المجهول بعد أن فرغ من غزو العالم المعلوم. وذات مرة قاده الطريق الى مكان تشيع فيه الرهبة ويشيع فيه السكون . ولم يكن قد ادرك انه قدتجاوز

---

(١٠) انظر كتاب « التيجان فى ملوك حمير » عن وهب ابن منبه رواية ابى محمد عبد الملك . ط . حيدر اباد . من ص ٨٢ الى ٨٤ .

(١١) انظر نفسه من ص ٨٦ الى ٩١ .

حدود الارض الى عالم الملائكة . وفجأة برز له شخص أخذ يزجره على نهمه الذى دفعه لان يتجاوز عالم الانس الى عالم الملائكة . وفى النهاية قدم له هذا الشخص حجرا صغيرا وقال له : « زنه بما ترى عينك فى الدنيا ، فان لك فيه عظة وعبرة » . فأخذ ذو القرنين الحجر « فوزنه بجميع جواهر الارض فرجح عليه ، ولم يزل يرجح كل ما وزنه به ، ولو وزنه بالكثير من جميع ما فى الارض ما وزنه ، والخضر ينظر اليه ساكتا ، قال له ذو القرنين: يا ولي الله ، هل عندك علم من هذا المثل ؟ قال له : نعم هذا الحجر مثل لعينيك ، لم يملأ عينك جميع ما فى الارض ، مثل هذا الحجر الذى لم يرجح عليه شيء فى الارض ، ولكن هذا يملؤها . ومد يده فأخذ قبضة من تراب فجعلها فى الكفة وجعل الحجر فى الكفة الاخرى فرجح عليها التراب وخف الحجر . قال له الخضر : هذه عينك لا يملؤها الا التراب وهو الغالب عليها . » (١٢)

هذه هى رواية وهب بن منبه لقصة ذى القرنين . وهي تشبه الى حد كبير رواية عبيد بن شريّه ، عن ذى القرنين فى كتابه « أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها » . ويختتم وهب بن منبه روايته بقوله : « ومات ذو القرنين بعد ذلك بفترة ، ثم غاب الخضر فلم يظهر الى أحد بعده الا لموسى بن عمران صلى الله عليه وسلم ، وعلى جميع النبيين . (١٣)

نستخلص من هذه الرواية مايلى :

١ ــ ان اسم الخضر فى هذه الرواية أصبح موسى الخضر . وهذا اعتراف ضمنى بانه هو العبد الصالح الذى لقيه موسى عند مجمع البحرين ، وفقا لما اصطلح عليه المفسرون .

٢ ــ حدث خلط تاريخى فى الروايات الشعبية عندما تصور الرواة أن ذا القرنين الذى عرف بانه الاسكندر الاكبر (انظر الطبرى جـ١٦ فى تفسير آية « ويسئلونك عن ذى القرنين » من سورة الكهف ، قد عاش قبل زمن موسى ، وبهذا يكون الخضر قد ظهر له قبل أن يظهر لموسى . بل ان أول ظهوره كان لذى القرنين ، ثم ظهر من بعده لموسى ولجميع النبيين كما تقول الرواية .

٣ ــ ان المضمون الاساسى الذى شاء الراوى الشعبى أن يبرزه فى قصة الاسكندر هو خلود الخضر فى مقابل فناء الانسان العادى مهما بلغت سطوته وبعد صيته . والسبب فى خلود الخضر شربه من عين الحياة أو ماء الحياة ، فى حين حرّم هذا على ذى القرنين . ولكن على الرغم من خلود الخضر ، فان خلوده ليس نهائيا ، فهو سوف يذوق الموت قبل البعث مباشرة كما وضح له الصوت الذى سمعه عندما رقى الصخرة فى قوله : « امض أمامك واشرب فانها عين الحياة ، وتطهر ، فانك تعيش الى يوم النفخ فى الصور ويموت أهل السماوات والارض فتذوق الموت حتما مقضيا . »

وقد نتساءل بعد ذلك : لماذا لم يمتد القصاص الشعبى بقصة الخضر مع سيدنا موسى بدلا من ربطه بين الخضر وذى القرنين مرة أخرى ؟ ونحن نرد على ذلك بأنه من السمات الاساسية فى القصص الشعبى استغلال الحادثة الجزئية (الموتيف) فى أكثر من قصة ، بل ونقلها كلية فى بعض الاحيان من القصة التى ارتبطت بها أصلا الى غيرها من القصص المؤلف . وربما كانت أهم حادثة جزئية استرعت نظر القصاص الشعبى فى قصة الخضر وموسى ، هى خلود الخضر . فلما شاء أن يقابل بين الخلود الذى يحن اليه ، بل ويشعر

---

(١٢) المرجع السابق ص ١٠٢ .

(١٣) نفسه ص ١٠٩ .

انه جزء من تكوين هذا الكون ، وبين الفناء الذى قدر للانسان مهما بعد صيته ، ربط بين الخضر والاسكندر الذى لم يضارعه انسان فان فى فتوحاته .

هذا شيء ، والشيء الآخر هو أن شخصية الاسكندر الاكبر ، فى الحقيقة، لم تستهو خيال القصاصين العرب وحدهم ، بل استهوت خيال جميع القصاصين فى بلاد العالم على وجه التقريب . وتكاد تتفق الروايات العربية والاجنبية جميعا حول رغبة الاسكندر الملحة فى الحصول على الخلود ، كما انها تتفق جميعا فى انه حرم هذا الخلود، فى حين قدر لشخصية أخرى هي الخضر فى الروايات العربية وطاهى الاسكندر فى الروايات الغربية . فتحكى هذه الروايات الاخيرة ان الاسكندر قام بمغامرة الى بلاد الظلمات بهدف الوصول الى منبع الفرات حيث يوجد نبع الخلود . وطال تجوال الاسكندر فى بلاد الظلمات دون ان يهتدى الى مطلبه . فلما تعب استقر مع طاهيه عند نبع تخيله نبعا عاديا كسائر الانبع التى مر بها . ثم طلب من طاهيه ان يعد له طعاما . فأخذ الطاهى سمكة مملحة ونزل فى النبع لكى يغسلها، ولكنه فوجىء بأن السمكة تحيا وتتسرب فى البحر . وادرك الطاهى توا انه بازاء نبع الخلود . فأسرع وتجرع جرعات من مياهه ، وأخفى خبر هذا الحادث عن الاسكندر . ثم أعد له طعاما آخر ، فأكلا معا ثم استأنفا سيرهما ، حتى بعدا كلية عن هذا النبع ، ولم يكن هناك سبيل للرجوع اليه . وشاء الاسكندر أن يستريح مرة اخرى ، ثم طلب من طاهيه أن يقص عليه حكاية لتسليته . فحكى الطاهى ، مدفوعا بغرابة ما حدث ، حكاية السمكة التى تسربت الى الماء وحييت . فتميز الاسكندر غيظا لخيانة الطاهى من ناحية ، ولاستحالة الوصول الى هذا النبع مرة اخرى » بل التعرف عليه فى تلك الظلمات الحالكة . فقام بدافع الغضب واليأس ، ورمى طاهيه بحجر كبير ليقتله . ولكن الطاهى كان قد اكتسب الخلود ، فلم يمت ، فأخذه ورماه فى الماء كي يفرقه ، ولكن الطاهي لم يغرق . عندئذ امسك به الاسكندر وربطه فى حجر ثقيل ورماه فى قاع الماء لكى يعيش حياته الخالدة مع الاحياء المائية . وهكذا فشل الاسكندر فى الوصول الى الخلود ، وهو الذى شقى فى سبيل ذلك ، فى حين حصل عليه شخص آخر لم يكن يسعى اليه .

وكما استغل القاص الشعبى شخصية الخضر فى حكاياته عن الاسكندر الاكبر ذى القرنين ، استغلها كذلك فى أنماط أخرى من قصصه ونخص بالذكر هنا سيرة **الظاهر بيبرس** . واذا كان الخضر لا يظهر الا لأولياء الله الصالحين ، فقد ظهر دوما للظاهر بيبرس لانه كما تصوره السيرة ، كان على درجة كبيرة من الولاية . وتحكى السيرة على سبيل المثال، ان **الملك الصالح نجم الدين ايوب** ، بعث الظاهر بيبرس وبرفقته الوزير **ايبك** والقاضى **جوان** ، على رأس جيش الى انطاكية ، لا لحصارها بل لاحضار ملك انطاكية اليه حيا . فلما حاول الجيش أن يعبر البحر ، فوجىء بأن ملك انطاكية قد أغلق البحر بالسلاسل الضخمة ، فوقف حيثما كان . ووجد ايبك وجوان ، اللذان كانا يكنان الحقد والغدر للظاهر بيبرس، وجدا ذلك فرصة لتحريض الجيش على التذمر ، فيضطر الظاهر بيبرس الى العودة دون أن يحقق رغبة الملك ، فيأمر الملك عندئذ بقتله . وتذمر الجيش وازداد تمرده عندما اشتد البرد وتفشى المرض بين الجنود ، ومع ذلك لم يفكر الظاهر بيبرس فى العودة ، بل كان يخرج فى ظلام الليل وحده يبتهل الى الله. وذات مرة أبصر مركبا يتجه نحوه ويرسو ، ثم تقدم اليه المركبى وحياه ، فلما نظر اليه الظاهر بيبرس عرف انه الخضر ، وطلب منه الخضر فى الحال أن يركب معه . فلما استقرا فى المركب هتف الخضر قائلا : باسم الله مجريها ومرساها . وفى لحظة كان المركب قد وصل الى شاطىء أنطاكية . عند ذاك قال الخضر للظاهر بيبرس: اذهب الى باب المدينة وستجد هناك رجلا فى انتظارك وسيقدم اليك صندوقا،

فخذه منه ، ولا تسأله بعد ذلك عن شيء .. ومشى الظاهر بيبرس حتى وصل الى باب المدينة وهناك قابلة رجل وسلم اليه صندوقا. وسأله بيبرس عن اسمه فرد قائلا : تابعى الذى وراءك سيخبرك بذلك ، ثم اختفى الرجل فى طرفة عين . ولما عاد بيبرس الى المركب وجد الخضر فى انتظاره . فقال له معاتبا : الم انهك عن ان تسأل ذلك الرجل عن شيء ؟ ثم ركبا المركب وهتف الخضر قائلا مرة أخرى : باسم الله مجريها ومرساها . فوصل المركب فى لحظة الى الشاطىء الذى كان جيش المسلمين يقف عنده فى أشد حالات التململ . فلما استدار الظاهر بيبرس ليصافح الخضر ، كان الخضر قد اختفى . وعندما فتح الصندوق بعد ذلك ، وجد فيه ملك انطاكية مغشيا عليه. فاغلق الصندوق وعاد بالجيش قافلا يحمل الغنيمة الى الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وما تزال شخصية الخضر ماثلة فى نفوس الشعب العربى بصفة عامة والشعب المصرى بصفة خاصة (١٤) تجسيدا للزمن الأبدى الذى تتجدد دوراته ولا ينتهى . فالخضر لم يمت وهو موجود فى مكان ما . فاذا ذكره انسان تقى طيب للاستعانة به فى موقف متأزم ، حضر الخضر ، وان لم يظهر فى صورة مجسدة لكى يسهم مع الناس فى حل ازماتهم . وقد يشارك الخضر فى ذلك اولياء الله الصالحين الذين يعتقد الشعب فى مشاركتهم بأرواحهم الخالدة فى شئون حياته . ولكن الخضر يختلف عن هؤلاء فى أن وجوده لا يرتبط بضريح بعينه لانه لم يمت ، ومن ثم فهو باق بوصفه فكرة مجردة للبقاء الأبدى .

وهكذا نرى الى اى حد يحن الانسان الشعبى الى الزمن الاسطورى حيث يولد كل شيء وحيث لا يفنى شيء ، والى اى حد يدفعه هذا الحنين الى تجسيد فكرة الزمن الابدى ، فى صورة أو بأخرى . حقا ان شخصية الخضر لا تطابق شخصية الملك الصياد تماما، بمعنى أن قصته لم تذكر صراحة أن خصب الحياة مرتبط بشبابه وحيويته ، ولكن الخضر على نحو ما صور بوصفه عقلا وروحا ابديين يشاركان الحياة تجددها المستمر ، ربما كان أبعد رمزا وأكثر اتساقا مع فكرة الزمن الأبدى الذى لا ينتهى .

●●●

وعلى الرغم من أن الانسان الشعبى يقاوم الزمن الحسى عن طريق ممارسته للاحتفالات والطقوس التى يشعر من خلالها بأن حياته تسير فى نغمة متناسقة مع لحن الطبيعة المتجدد على الدوام ، وعن طريق تجسيد فكرة الزمن اللانهائى ، على الرغم من ذلك ، فقد حركت حقيقة المصير المقدر له مشاعره بحيث لم يستطع اخفاءها فى تعبيره الادبى . ولقد رأينا كيف استغلت شخصية الخضر فى رواية قصة الاسكندر ذى القرنين ، لا بهدف تأكيد هذا الرمز الأبدى لنضرة الحياة الدائمة فحسب بل اكثر من ذلك لتأكيد هذا التعارض بين حياة نضرة خالدة وحياة مؤقتة فانية من ناحية ، ورغبة الانسان الملحة وسعيه فى الحصول على الخلود من ناحية أخرى . وحول هذا المعنى يدور كثير من اروع نماذج القصص الشعبى ، ونسوق هنا بعضا منها .

قصة لقمان بن عاد صاحب النسور السبعة مشهورة فى التراث العربى . فقد روى (١٥) أن لقمان تمنى على الله أن يعيش أطول عمر ممكن فدعاه قائلا :

اللهم يارب البحار الخضر
والارض ذات النبت بعد القطر
اسألك عمرا فوق كل عمر

---

(١٤) ومن ثم تكثر التسمية باسمى « خضر » و« خضرة » (فى الريف المصرى) .

(١٥) اخبار عبيد بن شرية الجرهمى (ط حيدر اباد) من ص ٣٥٦ - ٣٦٧ .

« فنودى ان قداعطيت ماسألت ولا سبيل الى الخلود . فاختر ان شئت بقاء سبع بعرات من ظبيات عفر ، فى جبل وعر ، لا يمسها قطر ، وان شئت بقاء سبعة أنسر سحم ، كلما هلك نسر أعقب نسر . فكان اختياره بقاء النسور. فبينا لقمان يدور ذات يوم فى جبل أبى قبيس بمكة ، سمع مناديا لا يرى شخصه وهو يقول : يالقمان بن عاد المغرور ، اطلع رأس ثبير ، ليس يعدو قدرك المقدور . فطلع رأس ثبير ، فاذا بوكر نسر فيه بيضتان قد تفلقتا عن فرخيهما ، فاختار لقمان أحد الفرخين(١٦) ثم عقد فى رجله سيرا ليعرفه وسماه المصون. ثم قال : المصون الخالص المكنون ، ومحذور السنون ، والباقى بعد الحصون الى آخر الدهن الخؤون » . ولكن الزمن ولى على هذا النسر ، وكبر وضعف ثم خر ميتا . فجزع (لقمان) لذلك جزعا شديدا ، وقال : هذا بلاء ، وانشأ يبكى نفسه ويقول :

موت المصون دل على أنا

نذوق الحمام حقا يقينا

ثم منح بعد ذلك النسر الثانى الذى سماه « عوضا » ، ولكنه لقى مصيره كذلك بعد وقت. وظلت نسوره تتساقط موتى واحدا تلو الآخر حتى لم يبق الا النسر السابع . فقال ابن أخ له : « ياعم ما بقى من عمرك الا عمر هذا . فقال لقمان : هذا لُبَدُ ولبَد بلسانهم (أى بلسان العرب) الدهر ، وهو اسم نسر من نسور لقمان . فلما انقضى لبد ، رآه لقمان واقفا . فناداه : انهض لبد ! فذهب لينهض فلم يستطع فسقط ومات ، ومات لقمان معه»

وقد اغرم القصاصون العرب بتصوير الانبياء وهم يستقبلون الموت . وربما لم يقاوم نبى الموت ، وفقا لرواية هذا القصص ، كما قاومه موسى عليه السلام . فقد روى أن الله كلمه قائلا : « ياموسى : انى حكمت على جميع خلقى بالموت . فقال موسى : الهى وسيدى ، انى أخاف من الموت ومرارته . فنزل ملك الموت على موسى وهو جالس يتلو التوراة . فقال : السلام عليكم ياموسى . قال : وعليكم السلام ، من انت ؟ فقال : انى ملك الموت جئت لاقبض روحك . قال موسى : من أين تقبضها ؟ قال : من فمك . قال : كلمت به ربى . قال : فمن يديك . قال : قد أخذت بهما الالواح . قال : فمن اذينك . قال : سمعت بهما الخطب من ربى . فقال له : فمن رجليك. قال : قد وقفت بهما على جبل طور سيناء لمناجاة ربى . فقال له ملك الموت : انى أراك تكلمنى كلام من طلب المسكر . فعند ذلك اختلط عقله وقال : ما شربت خمرا قط . فدنا منه ملك الموت ليقبض روحه ، فلطمه موسى على عينه ففقأها . فرجع ملك الموت الى الله عز وجل فقال : يارب ، انك أرسلتنى الى عبد لايريد الموت ففقأ عينى . فرد الله عليه عينه وقال له : ارجع الى عبدى وقل له ، ضع يدك على متن ثور ، فلك بكل شعرة تحصل تحت يدك عمر سنة . فقال موسى : وما بعد ذلك ؟ قال : الموت . فقال : يارب الموت أحب الى الآن . فقبض ملك الموت روحه » . (١٧) وقد قيل : « ان ملك الموت كان يجىء عيانا ، حتى جاء الى موسى فلطمه ففقأ عينه ، فأصبح يجىء مستترا » . (١٨)

وتعد **ملحمة جلجامش البابلية** أروع عمل أدبى قديم عالج موضوع صراع الانسان الفانى مع الموت .

---

(١٦) قال عبيد بن شرية : « انه كان ينظر الى اعظمها رأسا واجلها عظما » (نفسه ٣٥٧) .

(١٧) الكسائى : قصص الانبياء ـ ص ٢٣٩ .

(١٨) الثعلبى : قصص الانبياء المسمى بالعرائس : ص ١٩٣ .

لقد كان جلجامش ملك « ورقا » . وكان ثلثه انسانا وثلثاه الآخران الها . وكانت صورته الجسدية تثير الرهبة والخوف معا . كان جميع أهل ورقا فى خدمته ، الاقوياء والاسياد والحكماء والصغار والكبار ، بل والنساءكذلك فلم يترك فتاة لحبيبها ، ولم يترك زوجة لزوجها البطل ، حتى ارتفعت أصواتهن بالشكوى الى الاله الكبير ، رب السماء ورب « ورقا » : لقد خلقت الوحوش المفترسة والآساد الضارية ، ولكن جلجامش يفوقها قوة ، فمثله لم نر أحدا ، لم يترك الحبيبة لحبيبها ، ولا البطلة لزوجها البطل . واستمع الاله « أنو » لشكواهن ، ودعا الالهة «اورورو» خالقة البشر وقال لها : لقد خلقت الوحوش يوم ان خلقت مردوك ، اله مدينة بابل ، فاصنعى الآن مخلوقا يشبه جلجامش ويكون منافسا له ، حينئذ يعم « ورقا » الهدوء . وخلقت الالهة « انجيدو » انسانا قويا يملأ جسده الشعر ، ولا يعيش الا مع الحيوان البرى . وكان يقفمتصدرا الغابة مثيرالرعب فى قلب كل من يقترب من الغابة . وسمع جلجامش بهذا الانسان الغريب ينافسه فى قوته ، فعزم على أن يحتال عليه لاخراجه من الغابة . وكان قد رأى رؤيا فسرتها له أمه على أن مناوئا سيظهر له فى الميدان ، وسيصبح فيما بعد رفيقا له فى الكفاح . ونجح جلجامش فى اخراج « انجيدو » من مملكة الحيوان الى مملكة الانسان ، بل الى مملكة البطولة التى لا يقف فى سبيلها اى عائق .

وضجت الآلهة بمغامرات جلجامش التى كثيرا ما كانت تتجاوز عالم البشر الى عالم الآلهة ، ولهذا فقد عزمت على أن توجه اليه ضربة قاصمة تصرفه كلية عن تلك المغامرات الجريئة التي يتحدى بها الآلهة .

قال له انجيدو ذات يوم : « اننى رأيت حلما اقض مضجعى ، رأيت أن السماء تبرق وان الارض تهتز ، ورأيتنى أقف وحيدا امام مخلوق وجهه مكتئب أسود كالظلام . لقد كان يبدو امامى شرسا ككلب المفاوز . وفى لحظة قذف بي بعيدا فى حفرة ، ثم حولنى الي شكل آخر ، واستبدل بذراعيّ جناحين وقال : الآن طر بجناحيك بعيدا حتى تصل الى طريق لامخرج للانسان منه ، فسر فيه ، حتى تقابل بيتا لا مخرج له ، فادخل فيه . هناك يعيش الناس فى حلكة دامسة ، فهم عن الضوء فى غنى » .

ولم يفهم جلجامش ان هذه الرؤيا كانت نذيرا بموت صديقه ورفيقه فى الكفاح ، اذ لم يكن قد فكر قط فى الموت من قبل . وفى يوم آخر استيقظ انجيدو من نومه مذعورا ودخل على جلجامش وقال له : « لقد تدبرت الآلهه أمرها ياجلجامش وأحسبها انها تدبر هلاكى . ان حلمى الليلةكان مزعجا ، لقد انبأتني بخطر عاجل . فقد ابصرت نسرا عظيما هوى من السماء ثم حملنى فى الفضاء عليا وظل يصعد بى الى السماء ، ثم قال لى : الق ببصرك الآن الى اسفل ، كيف ترى الارض وكيف ترى البحر ؟ فلما نظرت وجدت البحر كالقصعة والارض كقطعة العجين ، عندئذ تركنى اهوى من بين مخالبه ، فهويت منأعلى محطما . »

ولاول مرة يفكر جلجامش فى سلطان الآلهة ، اذ قال لصديقه : الويل لنا ان كانت الآلهة قد ارادت بنا سوءا . »

ثم تملكت انجيدو الحمى ورقد طريح الفراش ، ولكنه كان مازال يتحدث الى جلجامش ، وكان قلبه مازال يخفق . وفجأة كف انجيدو عن النظر الى صديقه ، وكف قلبه عن الخفقان . وفزع جلجامش وهزه فى عنف وهو يصرخ به : « صديقى انجيدو ، ألم تعد تسمعنى ، ألم تعد ترانى ؟ بل ألم تعد ترى الضوء ؟ » .

وظل جلجامش راقدا بجانب صديقه يبكيه بعويل مزعجطيلة ستةايام وستليال ، ثم حفر

له فى اليوم السابع ودفنه . وخرج هائما على وجهه في البرارى . فقابله رجل ازعجه منظر الملك فاستوقفه وسأله : « ما الذى جعل وجهك هكذا شاحبا ؟ وما الذى أظلم روحك واحنى جسدك ؟ ولماذا يمتلىء قلبك بشكوى مريرة تودان تفرغها فى أسى ؟ » وفتح جلجامش فمه فى مشقة وقال : « صديقى انجيدو الذى ارتبط بى كعضو من جسدى . . صديقى الذى تجولت معه ، وصارعت الآلهة معه قد وصل الى المصير الانسانى . . كيف يمكننى ان أستقر وبمن يمكننى أن أستغيث بعد أن أصبح صديقى ترابا ؟ وهل سألقى يوما مثل هذا المصير ثم أظل راقدا الى الابد ؟ » .

وكان جلجامش يعلم أن « أوتنا بشتيم » الانسان قد حصل على الخلود ، وانه يستقر هناك عند نهاية بحار الظلمات . فقرر أن يرحل اليه لعله يكشف له عن سر خلوده . ان الرحلة محفوفة بالمخاطر ، والاشكال المهولة تسد طرقاتها . ومع ذلك فقد اصر جلجامش العنيد على الرحيل ، اذ كان الامل عنده أقوى من الخوف .

واستطاع جلجامش أن يذلل كل صعوبة فى رحلته ، وكان كلما استوقفه حارس مفزع من حراس العالم الآخر ويتأهب لطرده والحيلولة بينه وبين السير فى الطريق الذى يحرسه ، يعود فيسمح له بالدخول عندما يقرأ في عينيه الاصرار والألم معا .

واخيرا وصل جلجامش الى **أوتنا بشتيم** فى سفينة يقودها نوتى أوتنابشتيم نفسه،على الرغم من أن هذا النوتى قد حذر من أن يأتى بانسان فان الى هذا المكان. فلما لمح أوتنابشتيم جلجامش برفقة النوتى ، صرخ بنوتيه لأنه يجيئه لأول مرة مصطحبا انسانا فانيا . ورد جلجامش على أوتنا بشتيم قائلا : « اننى جلجامش الملك ، وقد اتيتك من مكان بعيد للتحدث معك فيما يزعج خاطرى . لقد عذبنى موت صديقى انجيدو ، ولذلك فقد جئت اليك لعلك تشفى غلالة صدرى ، فترشدنى الى الوسيلة التى حصلت بها على الخلود ، لعلى أستطيع أن أرد الحياة لصديقى وأن احتفظ بها لنفسى . « عند ذاك رد عليه أوتنا بشتيم قائلا : « اترك شكواك وغضبك جانبا ياجلجامش ان الفرق كبير بين الآلهة والانسان . الموت للانسان والدوام للآلهة . واذا كان ثلثاك الها ، فان ثلثك الانسانى يدخلك فى زمام البشر . ما أن يستقبل المولود ضوء الحياة ، حتى يجتمع « أنونانكى » الروح الاكبر مع **ماميثوم** الاله الخالق للمصاير ، ثم يديرا معا أمر هذا المولود ، فيقررا معا ولادته ووفاته . أما يوم ولادته فيعلنان عنه ، وأما يوم وفاته فيحتفظان به » .

والح جلجامش على أوتنابشتيم أن يكشف له سر خلوده . وكشف له **أوتنابشتيم** السر . لقد كان صراعا بين الآلهة أدى الى أن يأمر بعضها باغراق الارض ومن عليها . واختلفت الآلهة اثر ذلك ، وعقدت مجمعها وقررت فيه ان تنقذ انسانا واحدا من البشر حتى لاتفنى البشرية عن آخرها ، وكان هذا الانسان هو أوتنا بشتيم . انها حادثة حدثت مرة ، ولكنها لن تحدث مرة أخرى ، كما قال له أوتنابشتيم . وبعد ذلك أمره أوتنا بشتيم أن يصعد المركب ويعود الى « ورقا » . ولكن زوجة اوتنابشتيم التى كانت تستمع الى جلجامش فى الم ، توسلت الى زوجها أن يكشف له عن سر آخر للخلود . فاشفق أوتنا بشتيم عليها وافشى لجلجامش عن مكان عشب الخلود فى البحر الذى سوف يبحر فيه . فاذا عثر عليه وأكل منه أصبح خالدا . ودب الامل فى نفس جلجامش مرة أخرى ، وانتعشت روحه . وفى الحال استقل المركب مع النوتى الى المكان الذى حدده جلجامش . وهناك عثر على عشب الخلود ، فامسكه بين يديه والامل يحلق به ، ولكنه لم يشأ أن يأكل منه الا بعد ان يغتسل فى مياه البحر ، وينفض عنه غبار الرحلة ومتاعبها . ولهذا فقد القى العشب على الشاطىء ريثما يستحم ، وما كاد يخرج من

اماء فى اتجاه الشاطىء ، حتى ابصر حيةتقضم آخر قضمة فى العشب . فنظر اليها جلجامش فى ذهول ، وهي تخلع عنها جلدها القديم وتكتسى جلدا جديدا . لقد عثر على عشب الخلود ، ولكنه حرم منه واستفاد به حيوان دنيء لم يسع اليه ، ولن يستمتع بمفعوله .

وهكذا باءت رحلة جلجامش بالفشل ، ولم يكن لديه من سبيل سوى أن يرحل الى«ورقا» وينتظر موته . (١٩)

والعلاقة واضحة بين الحكايات الثلاث التى سقناها ،وهي تعد جميعا من تراث الشعوب . فالبطل فيها يتمنى الخلود ويسعى اليه ،ويظل الامر يساوره زمنا فى الحصول على الخلود . ولكنه يقر فى النهاية بانه لن يحصل عليه لانه ينتمى الى الجنس البشرى . وعلى الرغم من أن هناك ما يسمى فى القصص الشعبى بعشب الخلود او ماء الحياة الذى قد ينجح الانسان فى الوصول اليه على نحو ما فعل الاسكندر وجلجامش ، ولكن الوصول لا يعنى الحصول على الشيء . وكأن الفنان الشعبى شاء أن يؤكد ان الخلود موجود ، وهو قريب من الانسان ، لانه يمثل جوهر الكون الذىيعيش فيه ، وان فنى هو جيلا بعد جيل .

وطبيعى أن يكون الانسان الشعبى العصرى أكثر واقعية ممن سبقه ، ومن ثم فان تعبيره يكون أكثر تشاؤما اذا ما تناول هذه الظاهرة فى قصصه . وتحكى حكاية مصرية معاصرة ، وقد وردت فى أكثر من رواية عربية اخرى ، ان رجلا كان يعيش فى رغد من العيش ،ولكن الاحداث أطاحت بثروته . فخرج من بيته ذات يوم حزينا وجلس عند ضريح السيدة زينب . فمر امامه رجل شيخ أخذ يتحدث معه وعرف منه قصة ضياع ثروته ، فقدم الشيخ له عباءة وطلب منه أن يدخل فيها . فلما فعل الرجل هذا وجد نفسه فى مكان آخر لم يعرفه من قبل ، كما وجد نفسه يقف امام حانوت . ولما كان جائعا ، فقد طلب من صاحب الحانوت أن يعطيه رغيفا يقتات به . فسأله صاحب الحانوت عما اذا كان غريبا فى هذا البلد ، فأجابه بالايجاب . عند ذاك أخبره بأن الحظ يبدو أنه سيحالفه ، اذ أن الملك قد أعلن انه سيزوج ابنته لاول غريب تطأ قدمه المدينة . ثم اصطحبه الى الملك الذى وافق على زواجه من ابنته بشرط واحد هو الا يتدخل فيما لا يعنيه . ولم يعترض الرجل الغريب على هذا الشرط ، اذ اعتقد أنه من السهل تحقيقه فى يسر . وذات يوم كان يسير فى حديقة القصر ، فأبصر رجلا دائم الصعود والهبوط على شجرة ، وكان يأكل فى أثناء ذلك ثمارها الحلوة والفجة على السواء. فأخذ ينظر اليه فى تعجب ثم سأله : لماذا تصعد الشجرة وتهبط عليها على هذا النحو ؟ ولماذا لا تستقر فى مكان واحد منها وتلتقط ثمارها الحلوة وتأكلها حتى تشبع ؟ عندئذ رد عليه الرجل قائلا : ان هذا أمر لا يعنيك وليس من حقك التدخل فيه . وفى الحال تذكر الرجل الشرط الذى اشترطه عليه الملك ، ولكنه تصور أن أحدا لم يره . وعندما عاد الىزوجته فوجيء بقولها : انك أصبحت محرما عليّ بعد أن نقضت العهد الذى أخذته على نفسك . انك تصورت اننى لم أرك ، ولكن الحجاب مكشوف عن بصرى ، ولهذا فقد رأيت كل شيء . فخرج الرجل من عندها خائبا وسار فى طريقه الى دكان الخباز . وتوسط لهالخباز عند الملك كي يعفو عنه ويزوجه ابنته الثانية . ووافق الملك على ذلك ولكنه اشترط عليه الشرط نفسه . وأيقن الرجل انه لن يخطىء مرة أخرى . وذات يوم كان يسير على شاطىء نهر فأبصر رجلا يملأ دلوا بالماء حتى يطفئه ثم يسكبه فى أرض عطشى . فوقف متعجبا

---

(١٩) انظر لكاتبة المقال فصل ملحمة جلجامش من كتاب اشكال التعبير فىالأدب الشعبى ـ الطبعة الثانية ـ مكتبة نهضة مصر .

من صنع هذا الرجل وساله : لماذا لا تهتم بالارض المجدبة فتسكب فيها الماء الكثير على نحو ما تفعل مع الارض المخضرة ، فرد عليه الرجل قائلا : ان هذا امر لا يعنيك وليس من حقك التدخل فيه . وادرك الرجل انه قد نقض العهد للمرة الثانية ، فلم يعد الى القصر ، بل رجع الى صاحب الحانوت ليحكى له فى اسف انه قد نقض العهد للمرة الثانية . فتوسط صاحب الحانوت له عند الملك حتى يزوجه ابنته الثالثة بعد أن وعده أن الرجل سيبقى على وعده ولن يتدخل قط بعد ذلك فيما لا يعنيه . ووافق الملك على زواجه من الابنة الثالثة وفقا لهذا الشرط . وقرر الرجل الا يخرج فى مكان تطاه الاقدام حتى لا يبصر ما يمكن أن يدفعه الى السؤال . فخرج ليسير على جبل بعيد لا تطاه قدم ، وما كاد يسير بضع خطوات حتى أبصر جماعة يشدون طوقا فيما بينهم دون انقطاع أو كلل ، بحيث كان يحاول كل منهم أن يشد الطوق نحوه . فوقف الرجل ينظر اليهم فى دهشة ثم سالهم عما هم فاعلون ، فردوا عليه بأن هذا أمر لا يعنيه ومن ثم لا يجوز له السؤال عنه . وعند ذاك ادرك الرجل انه قد تجاوز المحظور للمرة الثالثة ، وكان هذا كافيا لان يفكر فى الا يعود الى القصر أو الى صاحب الحانوت . ثم ارتدى عباءته فاذا به يجد نفسه مرة أخرى عند ضريح السيدة زينب ، والرجل الشيخ يقف امامه مبتسما . فساله الرجل الشيخ : هل كنت فى علم أم حلم ؟ فقال له الشيخ : بل كنت فى علم وعليك أن تقص علىّ ما رأيت . فقص عليه الرجل ما حدث له مع الرجال الغرباء الذين كانوا يسلكون على نحو غريب دفعه للتدخل فى أمرهم . ثم قال له انه لم يفهم شيئا عن سلوكهم الغريب ، رغم محاولته التدخل فى شئونهم . عند ذاك شرع الشيخ يفسر له ما غمض عليه فقال : ان الرجل الذى رأيته يصعد الشجرة ويهبط عليها دون ملل أو كلل ، وكان فى أثناء ذلك يأكل الثمرة الحلوة والفجة معا ، هو عزرائيل قابض الأرواح ، انه دائم التجول بين الناس يخطف أرواح الأخيار والأشرار على السواء . أما الرجل الذى رأيته لا يعدل فى توزيع الماء بين الارض المخضرة والأرض الجدباء ، فهو الملك المكلف بتوزيع الارزاق . انه يوزع الرزق حسبما تراءى له ، فقد يزيد فى رزق الثرى ويقتر فى رزق المعدم . واما الناس الذين يشدون الطوق فيما بينهم ، فهم أناس هذه الحياة . ان كلا منهم يحاول ان يشد الحياة نحوه ويحرم منها غيره ، على الرغم من علمه أن نصيب كل انسان من الرزق مقدر له ، وعلى الرغم من علمه ان الموت هو نهاية سعي الانسان فى الارض .

فهذه الحكاية جمعت بين مشكلتين ، احداهما مشكلة اجتماعية وهي عدم العدالة فى توزيع الارزاق ، والاخرى غيبية وهي مشكلة الموت . وحيث ان المشكلة الاولى لم تحل على مستوى اجتماعى ، وحيث ان الانسان الشعبى عجز عن ان يفسر هذا الظلم الذى يشعر به فى توزيع الارزاق ، فقد ربط بين هذه المشكلة ومشكلة الموت على أساس أنهما معا مشكلتان غيبيتان ، ليس من حق الانسان العادى التدخل فيهما والسؤال عنهما . وهذا ما رمت اليه الحكاية بشرط الملك الذى كان على الرجل بمقتضاه الا يتدخل فيما لا يعنيه .

●●●

ـ ٥ ـ

لقد فكر الانسان الشعبى اذن فى الزمن ، رغم سعيه الدائم ، الى تجديد دورة الحياة ، ذلك أن الموت حقيقة واقعة . حقا انه يعتقد فى أن الاموات لا ينفصلون عنه ، بل يشاركونه احداث حياته المعاشة . ولكنه يعلم كذلك انهم يفعلون ذلك بعد ان يصبحوا مجرد ارواح او أشباح ، وبعد ان يغادروا عالمهم الحسي الى عالم آخر غير مرئى ، لايدرى كنهه على وجه التحديد . وكان من الطبيعى بعد ان ادرك الانسان ذلك ، ان يفكر فى سبب ابتلائه

بالموت . فاذا كانت الالهة خالدة ، فلماذا لا تمنح الانسان الخلود على نحو ما تحقق لها ؟ وهل قررت له هذا الحرمان بدافع حقدها عليه ، ام ان غباء الانسان ونوازعه الانسانية كانا السبب فى ابتلاء الانسان بالموت؟

لقد رفض الانسان البدائى الاعتقاد فى ان الموت قدر للجنس البشرى منذ ان وجد على سطح الارض ، ولكنه عندما رأى من ناحية اخرى ان الموت حقيقة واقعة ، حاول تفسير حدوثه من خلال تصورات فلسفية انعكست فى حكاياته . وجوهر هذه الحكايات جميعا يتلخص فى ان الانسان كان قد منح الخلود فى بادىء الامر ، ولكنه فقد هذه المنحة اما بسبب غبائه ، او بسبب خداع الحيوانات الدنيا له كما يتضح ذلك من الامثلة الآتية ..

لقد استرعى نظر الانسان البدائى عملية نمو القمر حتى يصبح بدرا ، ثم تضاؤله واختفائه بعد ذلك. ومن ثم فقد تصور ان القمر يخوض كل شهر تجربة الحياة والموت ثم البعث . ومعنى هذا ان القمر عندما يختفى ثلاثة ايام، وهى المدة التى تفصل بين اختفائه وظهوره من جديد ، يموت موتا مؤقتا ثم يعود للحياة مرة اخرى ، فيبدأها من بدايتها ، كما يبدأها الطفل ، صغيرا ثم يكبر . ومن ثم كان القمر، كما سبق ان ذكرنا فى بداية بحثنا ، أوضح نموذج أو مثال لتجدد الحياة على الدوام ، ذلك التجدد الذى يحن اليه ، ويمارس طقوسه بشكل أو بآخر .

ويغنينا من كل ذلك ان الانسان نظر الى القمر بوصفه الها . واذا كان هذا الاله قد منح منحة الخلود على نحو مايراه حسيا ، فان هذا الاله لم يبخل بهذه النعمة على البشر ولهذا فقد قرر ، بعد تدبر ، ان يرسل رسولا للانسان يخبره بان لا يحزن اذا ما فارقت الروح جسده ، لان هذا الفراق لن يكون ابديا ، بل سوف تعود الروح اليه ويعود للحياة مرة اخرى ، تماما كما يحدث معه . وكلف القمر الأرنب ان يحمل رسالته الى البشر ويقول لهم : كما انى أموت ثم أحيا بعد ذلك ، فكذلك انتم سوف تموتون ثم تحيون مرة اخرى . ولكن الأرنب ابلغت الرسالة خاطئه الى الناس اما عمدا او سهوا . فلقد قالت لهم : ان القمر يموت ثم يحيا بعد ذلك، اما انتم فقد شاء لكم الاله القمر ان تموتوا الى الابد . وعندما عادت الارنب الى القمر واعادت عليه الرسالة كما أبلغتها، غضب القمر وضربها على وجهها ففلق شفتها العليا . وقد ردت عليه الارنب فلطمته على وجهه فخدشته ، ثم ولت مسرعة ، وما تزال الارنب تعدو حتى اليوم .

ويقال ان رسول القمر أبلغ الرسالة صحيحة الى البشر فقبلوها .. ثم حدث بعد ذلك ان ماتت أم رجل . وظل الابن ينتظر عودة الروح اليها أياما طويلة ، ولكن الأم ظلت راقدة امامه بلا حراك ، فبدا الرجل يشك فى رسالة القمر، وحاول القمر اقناعه بأن امه لم تمت ، وانما هى نائمة الى حين ، فعارضه الرجل وصرخ فيه قائلا : لا بل انها قد ماتت ولن تعود الى الحياة مرة اخرى . فاغتاظ القمر وصفعه على وجهه ففلق شفته ثم مسخه أرنبا لانه ، كما قال القمر ، قد عارضنى ورفض ان يقتنع برسالتى . ثم قرر القمر بعد ذلك ان يكون مصير الانسان الموت الابدى . ولعل هذا هو السبب فى ان بعض القبائل ترفض أكل لحم الارنب ، لانها وفقا للروايتين ، هى التى تسببت فى محنة البشرية .

وتروى بعض الشعوب البدائية كذلك ان الاله كان فى الزمن القديم يعيش بين الناس ويتحدث معهم وجها لوجه . ولكن تلك الايام السعيدة لم تدم . فذات يوم كانت بعض النسوة يسحقن الشعير ونظرن ، فاذا بالاله يقف بجوارهن يستمع الى حديثهن ويشاهد ما يفعلنه ، فتضايقت النساء وطلبن منه ان يبرح هذا المكان . فلما أصر الاله على الوقوف،

أمسكن بحفنة من الشعير ورمينه بها . فغضب الاله وصعد الى السماء ولم يعد الى الارض مرة اخرى . ومع ذلك فان الاله الرحيم ارسل رسالة الى الناس يقول لهم فيها : ان هناك شيئا يسمى الموت وسوف يصيبكم جميعا . ولكنه لن يقضى عليكم الى الابد ، اذ سوف تصعدون اليّ بعد ذلك وتعيشون معى فى السماء . واختار الاله الجدي رسولا ليبلغ الناس الرسالة . ولكن الجدي تلكأ فى الطريق ، ورآه الاله وهو رابض مستريح يقضم الاعشاب ، فأسرع الاله وارسل الشاة فى اثره لتبلغ الرسالة ولكن الشاة ابلغت الرسالة خاطئة ، اذ قالت للناس : ان هناك شيئا اسمه الموت ، وسوف يقضى عليكم لا محالة ، فلما وصل الجدي بعد ذلك وابلغهم الرسالة الصحيحة، لم يصدقها الناس وقالوا له : ان ما ذكرته الشاة هو الرسالة الصحيحة لانها وصلت قبلك . واما ما قلته انت فهو كذب ملفق (٢٠) ومعنى هذا ان الناس قد قبلوا الموت بسبب غبائهم ، اذ انهم لم يستطيعوا آنذاك أن يتصوروا ماهية الموت .

وهكذا نرى ان السبب فى ابتلاء الانسان بالموت يرجع فى بعض الحكايات الى خديعة الحيوان ، وفى بعضها الآخر الى غباء الانسان وسذاجته . اذ لماذا لم يصدق الرجل الذى ماتت امه ، وظل يصرخ فى وجه القمر بانه غير صادق وان امه ماتت الى الابد ، حتى اغضب القمر فحكم على الجنس البشرى كله بالفناء؟ ولماذا رفض الناس رسالة الجدي الصحيحة واصروا على ان الرسالة التى ابلغتها الشاة والتى بمقتضاها يفنى الانسان الى الابد ،هى الرسالة الاصلية ؟

ويتمثل غباء الانسان فى رفضه العودة الى الحياة فى حكاية طريفة أخرى تروى على النحو التالى : اجتمعت الالهة ذات يوم لتقرر مصير الانسان ، فاقترح احد الالهة ان يغير الانسان جلده كلما بلى ، وبذلك يتجدد شبابه . وعلى الانسان الهرم فى هذه الحالة ان يذهب الى شاطىء البحر وينزع جلده القديم ،ويصطاد جلدا جديدا من البحر ويرتديه .

وذات يوم شعرت امرأة بانها قد هرمت ، فذهبت الى شاطىء النهر لتخلع جلدها القديم وترتدى جلدا جديدا ، ثم عادت الى بيتها بعد ان ارتد اليها شبابها . فلما ابصرها حفيدها الذى كان يعيش معها أنكرها ، وعبثا حاولت ان تقنعه بانها جدته التى يحبها ، فقد استمر حفيدها فى عزوفه عنها ، لانه لا يود ان تكون جدته على هذا النحو من الشباب . وعندذاك عادت الجدة آسفة الى شاطىء البحر مرة اخرى حيث اصطادت جلدها القديم وارتدته . وفرح حفيدها بلقائها عند ماعادت اليه مرة اخرى فى صورتها القديمة المألوفة لديه . أما الجدة فقد امتلأت حزنا على فقدانها نعمة تجدد شبابها ، بل تجدد شباب الجنس البشرى بأكمله ، ذلك أن الجنس البشرى قد حرم نعمة تغيير جلده اثر هذا الحادث . وقد كان فى وسع الجده ان تصر على ارتداء جلدها الجديد حتى يتعود حفيدها منظرها على هذا النحو . ولكن الانسان البدائى شاء ان يعبر عن فلسفة اخرى تبعث من احساسه بسيطرة الزمن على الانسان ، وهي أن لكل عمر سحره، وان شخصية الانسان وسلوكه يتحددان بعمره. والطفل فى هذه الحكاية لم يكن يهمه أن تعود الجدة الى شبابها بقدر ماكان يهمه ان يحتفظ بحبه لشخصها ، الذى تكيف على هذا النحو بتقادم السنين عليه . أما اذا ارتدت الجدة الى شبابها ، فلابد أن يتغير سلوكها وفقا لذلك وهذا ما يرفضه الحفيد . ولهذا فقد صرخ الطفل عند رؤية الجدة الشابة ، وهذا روعه عند رؤية الجدة الهرمة ، وهي مفارقة قد تبدو غريبة ، ولكنها تحمل جانبا من جوانب فلسفة الزمن .

---

(٢٠) انظر فريزر : الفولكلور فى العهد القديم ـ الترجمة ـ الجزء الاول باب سقوط آدم .

وأخيرا هناك حكاية اخرى تحكى أن الالهة فزعت لتكاثر الناس فى الارض ، وخشيت أن تضيق بهم الارض فى يوم ما ، ولهذا فقد عقدت مجلسها وقررت أن يكون مصير الانسان كمصير شجرة الموز ، فشجرة الموز تكبر ثم تموت تاركة وراءها ذريتها ، وهكذا ينبغى أن يفعل الانسان حتى تجد الاجيال الجديدة مكانا لها على وجه الارض ، وقد ارتضى الناس هذا الحكم ونفذوه ، ومازالوا ينفذونه حتى اليوم.

ومع أن الناس ابتلوا اثر هذه الاحداث بالموت ، فان هذا لم يحز فى نفوسهم كثيرا ، ذلك أن الموتى كانوا يختلطون بهم يوما فى كل عام ، وكانوا يحتفلون بهذا العيد الموسمى لهذا الغرض . ثم حدث أن توفيت امرأة تاركة وراءها ابنة حبلى ، ولما ولدت الام الطفل ، لم يكن لديها الغذاء الكافى لاطعامه ، فانتهزت فرصة وفاة رجل وارسلت معه رسالة لامها ترجوها فيها أن تحضر لابنها غذاء من عالم الموتى ، فحملت الجدة سلة مملوءة بالنبات ، ورحلت الى أرض الاحياء . وعندما وصلت الى بيت ابنتها ، أخذت تفلح الحديقة لتزرع النبات الذى أحضرته . وبينما كانت ابنتها تطل من النافذة ، أبصرتها وانكرتها ، اذ كانت تبدو غريبة تماما عن الأحياء . ولم تستطع الابنة مقابلتها وهي على هذا النحو ، بل صرخت فى وجهها من بعد وطلبت منها أن تعود على الفور الى أرض الأموات ، فغضبت الأم وقالت لابنتها : « لماذا تطردينني على هذا النحو ؟ ألم أزرع النبات لحفيدى ليتغذى من ثمره ؟ انني ذاهبة » . ثم أخذت ثمرة من ثمار جوز الهند وشقتها الى نصفين ، واعطت لابنتها النصف الذى لا يبصر الانسان من خلاله شيئا ، واحتفظت لنفسها بالشق الذى يتمكن الانسان الرؤية من خلاله ، ثم قالت لابنتها ، من الآن فصاعدا لم يعد الأحياء يرون الأمهات رأى العين . اما نحن فسوف نراكم من خلال شق ثمرة جوز الهند الذى احتفظنا به لأنفسنا ، ورحلت . (٢١)

ومعنى هذا ان الانسان قد سلم فى نهاية الأمر بأن الموت قد قدر له ، وان الأموات يعيشون فى عالم منعزل عن عالم الاحياء ، بحيث لايتمكن الأحياء من رؤيتهم ، وان تمكنوا هم من التحليق فى عالم الاحياء والاطلاع على ما يجرى بينهم . ومهما تكن الاسباب التى أدت الى ابتلاء الانسان بالموت ، فان السبب لا يرجع قط الى حقد الآلهة على الانسان ، بحيث شاءت أن تحرمه من نعمة احتفظت بها لأنفسها ، والأحرى أن وسيلة الاتصال المباشر بين الناس والآلهة لم تكن ميسرة بحيث حدث تحريف فى تبليغ رسالة الآلهة الى الانسان ، أو رسالة الانسان الى الآلهة .

هذا التفاؤل الذى يعد من أبرز خصائص الانسان الشعبى منذ القدم ، مازال يتصف به الانسان الشعبى المعاصر . فهو يتفاءل بدعاء شخص له بطول العمر اذا ما عمل له عملا خيرا . وعلى الرغم من اقتناع الرجل الشعبى بأن الاجل محتوم ، وان موت الانسان مقدر بزمان ومكان محددين ، الا انه يسعد بهذا الدعاء لاعتقاده بفاعليته .

تحكي حكاية معاصرة ان فلاحا كان يعمل فى حقله الذى يقع بالقرب من المقابر ، وذات يوم بينما كان يعمل فى الحقل ، سمع صوتا يقول له : ان فلانا سوف يحمل الى ذاك المكان وبالمثل فلانة . اما فلان فقد كان جاره ، واما فلانة فكانت زوجته . وعاد الرجل الى بيته حزينا ولكنه لم يخبر زوجته بأى شيء . وفى الصباح سمع صراخا وعويلا مصدره بيت جاره ، فأيقن ان جاره قد فارق الحياة كما أخبره الصوت . واذن فسوف تموت زوجته حتما . ولكنه نظر الى زوجته فوجدها تمتلىء بالنشاط والحيوية ، ولهذا فقد سلم أمره الى الله

---

(٢١) Malinowski (B). : Magic, Science and Religion pp. 104-110 (Boston 1948)

ورحل الى حقله . فلما عاد الى بيته فى المساء فوجىء بأن امراته ماتزال فى نشاطها وحيويتها . فسألها عما فعلته طوال النهار ، فحكت له انها فرغت من أعمال المنزل ثم أعدت له الطعام واخذت تنتظره . فلما تأخر عن موعده ، وكانت تشعر بالجوع ، أعدت لنفسها طعاما سريعا . وما كادت تجلس لتأكله حتى طرق بابها طارق جائع وطلب منها أن تمنحه رغيفا من الخبز يسد به رمقه . فرفعت الأكل كله الذى كان امامها وأعطته للشحاذ الذى دعا لها بطول العمر . وسكت الرجل وظل يتوقع فى كل لحظة أن تسقط زوجته ميتة . فلما استيقظ فى الصباح كانت زوجته ما تزال نشطة قوية ، فودعها وانصرف الى حقله . وهناك تحدث الى الصوت الذى سمعه وقال له : « انك قلت ان فلانا سوف يحضر الى هذا المكان فى الغد وكذلك فلانة ، وقد حضر فلان حقا ، ولكن فلانة ماتزال على قيد الحياة قوية ومليئة بالحيوية . فطلب منه الصوت أن يرفع بصره الى السماء . فلما فعل الرجل ، أبصر حجرا كبيرا كاد يهوى على رأس زوجته ولكن طبقا به طعام ، ورغيف حال بينه وبين السقوط . عندئذ تذكر الرجل قصة الشحاذ الجائع الذى أطعمته زوجته بطعامها ، فدعا لها الشحاذ بطول العمر .

وعند ذاك قال الفلاح لنفسه : « حقا ، ان اللقم تمنع النقم » .

نستطيع أن نستخلص من كل ما أوردناه ما يلى :

أولا ـ ان ارتباط الانسان الشعبى نفسيا بالزمن الاسطورى حيث يولد كل شىء من جديد ، كان سببا وراء نزوعه الدائم الى تجديد حياته . وهو يفعل هذا من خلال ممارساته واحتفالاته وتصوراته .

ثانيا ـ وهذا لايعنى أن فكرة الموت لم تزعج الانسان الشعبى ، وانه لم يتساءل عن سبب ابتلائه بالموت ، ولكنه عندما فعل ذلك ، كانت اجابته نابعة من طبيعته المتفائلة بصفة عامة ، وهي تلك الطبيعة التى تتجنب التفلسف الذى قد يفقده الاحساس بقيمة الحياة وجوهرها الحقيقى . ومن ثم فقد رأى انه قد ابتلى بالموت بسبب سلوك غبى من الانسان ، أو بسبب خداع الحيوان له . اما الآلهة فهى بريئة من أن تتهم بابتلائها الانسان بالموت .

فاذا كاد تعبير الانسان الشعبى يقترب من الحس المأساوى كما هو الحال فى قصة الاسكندر الاكبر ، غلبته طبيعته المتفائلة وجعلته يذكر شخصية الخضر ويؤكد تجسيدها لفكرة شباب الحياة الدائم .

ثالثا ـ فى ضوء هذه الفلسفة العامة التى نستخلصها من التراث الشعبى ومن سلوك الانسان الشعبى ، نستطيع أن نقرر أن ماورد فى التراث الشعبى ، وهو فى الحقيقة قلة ، معبرا فى حزن عن مأساة الانسان الذى تنتهى حياته بعد كفاح طويل بالفناء ، ليس سوى تعبير عن احساس مؤقت باليأس ، ولكن ما يلبث هذا الاحساس ان يغلبه الشعور العام بتلك القوة الدافعة المتدفقة القادرة على تجديد الحياة وبعثها من جديد .

● ● ●

ـ ٦ ـ

وعلى الرغم من أن الهرم سبيل الى الجدب ، والجدب سبيل الى الفناء ، فان تلك النظرة السلبية الى الشيخوخة يعوضها ما اكتسبه الانسان الهرم من تجارب وخبرة وحكمة . ومعنى هذا انه اذا كان الانسان الهرم يرمز الى اضمحلال الحياة وتدهورها ، فانه فى الوقت نفسه يمثل قمة الحكمة والتجربة . ومن هنا استغلت شخصية الرجل العجوز استغلالا رائعا فى القصص الشعبى والأمثال الشعبية .

فقد ألفنا ظهور شخصية الرجل العجوز فجأة للبطل فى القصص الخرافى ، وذلك عندما يصبح البطل فى حيرة من أمره ، وتعز عليه النصيحة . ويحدث هذا عندما يعتزم البطل القيام بمغامرة من أجل الحصول على شيء محدد من العالم المجهول . عندئذ يخرج من بيته وحيدا ، ويسير فى طريق يبدو له أول الأمر معلوما ، ولكنه ما يلبث أن يصادف مفترقا من الطرق ، فيقف فجأة ولا يدرى أى طريق يسلك . فى تلك اللحظة يظهر له شيخ عجوز يسأله من تلقاء نفسه عن هدفه ، وعندما يجيبه بانه يعتزم الوصول الى الاميرة المسحورة او الليمونات الثلاث ، او الى أى شيء من تلك الاشياء الغريبة التي تعد وموزا فى القصص الشعبي ، أشفق عليه الرجل العجوز من مخاطر الطريق الوعر ، الذي ينبغي عليه ان يسير فيه لكي يصل الى مأربه ، ونصه بدافع هذا الاشفاق ، ان يعود مدرجه . ولكنه عندما يرى ان الشاب مصر على الوصول الى هدفه ، وان خاض فى سبيل ذلك الاهوال ، كشف له الرجل العجوز عن الطريق الصحيح الذي يوصله مباشرة الى غرضه ، وحذره من انه سوف يقابل قوى شريرة فى شكل مارد أو وحش مفترس او تنين يقف متربصا به ويود ان يبتلعه . ثم يقدم له الشيخ فى النهاية ، بدافع الحرص الشديد على نجاح مهمته ، اداة سحرية . كأن تكون حصانا ، او عصا ، او اى شيء آخر . فاذا استخدم البطل هذه الاداة السحرية فى اللحظة المناسبة ، جنب نفسه المخاطر ، ووصل الى مأربه .

وقد أفاض العالم النفسي **يونج** ومن ورائه مدرسته فى تفسير رموز القصص الخرافي ، الذي يتشابه كثيرا فى جميع انحاء العالم ، على أساس ان هذه الرموز تكشف عن تكوين اللاشعور الجمعي الذي اهتمت هذه المدرسة بصفة خاصة بالكشف عنه ، وذلك فى مقابل اهتمام **فرويد** بالتحليل النفسي ، واهتمام **آدلر** بعلم النفس الفردي .

وقد نظر يونج الى النفس الانسانية بوصفها وحدة متكاملة من الشعور واللاشعور . وهذا اللاشعور لا يحتوي على صنوف من الكبت النفسي فحسب ، بل انه يحتوي على ما هو أهم من ذلك بكثير ، وهو القوة الدافعة الى تكييف الانسان لحياته بصفة عامة . وهذه القوة الدافعة هي التي تثير القدرة على التخيل ، وهي التي تنظمها على نحو ما يظهر فى أشكال التعبير الشعبي والادبي بصفة عامة . فاللاشعور عند يونج يتكون من عنصرين : **عنصر فردي وعنصر جمعي** . أما العنصر الفردي فهو ما تحدث عنه فرويد واهتم به ، وهو ملك للانسان الفرد . واما العنصر الجمعي فهو ملك للناس جميعا ، لانه يحتوي على القوى الدافعة التي تعد عنصرا قائما فى تكويننا النفسي ، وجزءا حيا وضروريا فى حصيلتنا النفسية ، وهي ما اصطلح يونج على تسميتها بالانماط الاصلية Archetypes وعندما تتحرك تلك الدوافع أو الانماط الاصلية بداخلنا يكون لتأثيرها سلوك ذو طابع سحري وروحي . فكم منا يشعر بشعور مخيف ازاء القوى المهددة التي ترقد مكبلة بداخلنا ، ولا ينطق فى هذه الحالة سوى بكلمة السحر التي تخلصه منها ؟ أن كلمة السحر فى هذه الحالة ليست سوى تعبير عن الدور الفعال للنمط الاصلي الذي يتحرك بداخلنا . ويعد النمط الاصلي احد أقطاب لا شعورنا ، اما القطب الآخر فهو القطب السلبي ، وهو ما يمكن ان نسميه بالغرائز . وعلى الرغم من أن الانماط الاصلية والغرائز متعارضة للغاية ، الا انها مرتبطة بنظام معين ، ذلك ان القوى الخلاقة فى الانسان انما تنجم عن هذا التعارض البالغ بين القوى الايجابية والقوى السلبية (٢٢)

---

(٢٢) Hano E. Giehr : Volksmarchen und Tiefen Psychologie Mûnchen, 1970, S. 19

وعلى ذلك يمكننا ان نلخص فكرة يونج فى الانماط الاصلية فى انها الطبيعة الصافية غير الفاسدة فى الانسان . ولا يجوز لنا ان نخلط ، كما يقول ، بين الانماط الاصلية والتصورات والخيالات النابعة عنها ، ذلك ان الانماط الاصلية ليست سوى دوافع ، وهذه الدوافع تتحرك فى نشاط داخل الانسان ، وتدفعه الى تحقيق الشىء الكامل والى الشعور بالانسجام التام مع الوجود كله . وينتج عن هذا التحرك انماط من السلوك ، كأن ينطق الانسان بكلمات أو يقوم بافعال لا يدرك مغزاها . وقد يستدعي هذا التحرك أشكالا من الخيالات تظهر فى الاحلام او فى التعبير الادبي أو فى حالة الامراض النفسية .

ولا يهمنا بطبيعة الحال فى هذا المجال ان نفسر كل صور القصص الشعبي بناء على نظرية يونج ، ولكن يهمنا ان نشير الى ما يخص موضوعنا ، وهو ظهور شخصية الرجل العجوز او المرأة العجوز كثيرا فى الادب الشعبي .

وقد سبق ان اشرنا الى ان الرجل العجوز المجهول كثيرا ما يظن فى غير توقع لبطل الحكاية الخرافية ، وذلك عندما يتازم موقف البطل فى رحلته المجهولة ، فيشفق عليه ويمنحه النصيحة ويقدم له الاداة السحرية . وشبيه بهذا حكاية تحكي ان طفلا عهد اليه ان يرعى بقرة ، ولكن البقرة ولت منه هاربة . وظل الطفل يبحث عنها وهو خائف من العقاب الذي سيوقع عليه ، ولكن دون جدوى . فلما تعب من البحث نام فى ظل شجرة ، واستيقظ فجأة وهو يحس بأن سائلا كطعم اللبن يتسرب الى فمه . فلما فتح عينيه أبصر رجلا عجوزا يصب اللبن فى فمه . فسعد به الطفل وتوسل اليه ان يزيده من جرعات اللبن ، ولكن الرجل العجوز قال له : كفاك اليوم يا بني هذا المقدار ، لقد كنت على وشك الموت حينما قابلتك ، ثم طلب من الصبي ان يحكي له قصته . فحكى له الصبي قصته مع البقرة الضالة ، وكيف انه يخشى العقاب ، عندئذ قال له الرجل العجوز : انك يا بني لن تستطيع ان ترجع الى الوراء بعد اليوم ، ولا مفر لك من التقدم حيث الجبل الشاهق الذي يقع شرقا ، ثم منحه العجوز النصيحة والتميمة لكي يكونا عونا له فى رحلته التي سيخوضها وحيدا .

فالطفل هنا ، وهو خيال نجم عن قوة الانماط الاصلية ، يرمز الى الشىء الذى يولد ثم ينمو ويترعرع . ومن ثم فقد تحتم على الطفل الا يعود الى وراء ، بل يتحرك الى امام حيث الجبل الشاهق الذى يشبه ما تصبو اليه نفسه رفعة ، وحيث ان الطفل لم يستطع ان يحقق لنفسه ـ لاسباب داخلية وخارجية ـ المعرفة اللازمة التي يحتاج اليها، فان هذا الاحتياج النفسي يتجسد فى شكل رجل عجوز حكيم يقدم له الغذاء الضرورى ، كما يقدم له الوسائل السحرية التي تعينه على تحقيق هدفه .

وهكذا نرى كيف ان شخصية الرجل العجوز التى استقرت فى نفوس الناس بوصفها تجسيدا للخبرة والحكمة والطيبة ، اصبحت فى القصص الشعبي انعكاسا للتاثير الايجابي للقوى الداخلية التي تدفع الانسان الى تحقيق الشىء الكبير . وحيث ان الانسان فى مراحل حياته يجتاز العقبة تلو العقبة . كما لو كان ذلك يتم بطريقة سحرية ، حتى يصل الى الشخصية المتكاملة ، فكذلك يصل البطل فى القصص الخرافي الى ما تصبو اليه نفسه عن طريق الاداة السحرية ، فكأن نوعا من السحر قد أوصله حقا الى مأربه .

وفى مقابل شخصية الرجل العجوز الحكيم الذى ،كثيرا ما نصادفها فى القصص الشعبي، نجد شخصية المرأة العجوز . ولكن اذا كان الرجل العجوز قد اصبح رمزا للحكمة واتساع الخبرة ، ومن ثم فهو يظهر للبطل عندما يحتاج نفسيا الى قوة البصيرة التي تهديه سواء الطريق ، فان المرأة العجوز ، على

العكس ، هي رمز للخداع والمكر . وقد تصل الى قمة الشر لتصبح أمنا الغولة . وكلنا يذكر ان زوجة الاب او الحماة فى القصص الشعبي، اذا أرادت بابنة زوجها أو زوجة ابنها شرا ، استعانت بعجوز شمطاء لكي تدبر لها مكيدة ضد البنت الطيبة البريئة . وهناك حكاية عربية تحت عنوان « كيد النساء يغلب كيد ابليس » تصور هذه النظرة الشائعة الى المرأة العجوز . فقد تراهن ابليس مع امرأة عجوز على ان يترك لها البلد ان هي استطاعت ان تقوم بعمل لا يقدر هو على فعله . فذهبت العجوز الى حانوت رجل يبيع القماش واخذت تبكي لصاحبه وتتوسل اليه ان يمنحها قطعة من القماش ، لان ابنها يعشق امرأة ، والزمها ان تشتري له قطعة من القماش يهديها لعشيقته ، وهي فقيرة لا تقدر على شرائها . فاشفق عليها صاحب الحانوت وقدم اليها قطعة من القماش . فشكرته المرأة ورحلت بقطعة القماش الى بيت صاحب الحانوت ، وعندما اقتربت من البيت ، ابصرت الزوجة تطل من الشباك ، فاصطنعت انها قد تعثرت ووقعت ولم تستطع القيام لعجزها وضعفها. فلما رأتها الزوجة على هذا النحو . خفت اليها وأعانتها على القيام وأدخلتها بيتها وطلبت منها أن تستريح . ثم تركتها لكي تصنع لها قدحا من الشاي.فى أثناء ذلك اخفت المرأة العجوز قطعة القماش تحت وسادة الاريكة التى اعتاد الزوج ان يستريح عليها بعد تناول الغداء . ثم شربت بعد ذلك الشاي وشكرت للزوجة فضلها وعطفها ورحلت . فلما رجع الزوج الى بيته،تناول الغداء وذهب ليستريح كالعادة على الاريكة . وبينما كان يقلب الوسادة ، وقعت عينه على قطعة القماش التي كان قد أهداها للمرأة العجوز ليقدمها ابنها الى عشيقته . ولم يساوره شك فى تلك اللحظة فى أن زوجته هي بعينها عشيقة هذا الابن ، ومن ثم فقد اتهمها بالخيانة ، وسرحها الى بيت أبيها . ولما تأكدت العجوز ان خدعتها قد تمت بنجاح ، رحلت الى ابليس لتحكي له فى زهو عن فعلتها التي يعجز هو عن اتمامها ، ولكنه سخر منها وقال لها انه يفعل مثل هذا الفعل مئات المرات كل يوم ، وان عليها أن تفتق ذهنها عن عمل يعجز هو حقا عن فعله . فعادت المرأة الى حانوت الرجل واعترفت للزوج بفعلتها القبيحة ، واعلنت له براءة زوجته . فرحل الزوج على الفور الى زوجته واعتذر لها واعادها اليه .

ولما علم ابليس بذلك قال للعجوز : هذا حقا مالا أقدر على فعله ، ثم ترك لها البلد .

فاذا ظهرت فى القصص الشعبي شخصية أمنا الغولة بشعرها المنفوش ، واسنانها البارزة ، وملامحها الهرمة الكريهة ، فانها تكون مساوية تماما لسائر الشخوص الشريرة التي تظهر لبطل الحكاية الخرافية مثل المارد والتنين ،وتكون مهمتها عندئذ اختطاف البطل والحيلولة بينه وبين العودة الى بيته . فاذا لم يتمكن البطل من ان ينفلت من قبضتها التهمته . وليست هذه الصورة ، وفقا ليونج كذلك ، سوى تجسيد للقوى المعوقة داخل الانسان ،وهي تلك القوى التي تصدر له الامر مفزعا حتى لا يقدم عليه ويحقق تقدما ما فى حياته . فاذا لم يكن الانسان واعيا بتلك المعوقات ، ابتلعه اللاشعور ، تماما كما تبتلع أمنا الغولة البطل .

وقد نتسأل بعد ذلك : لماذا خص الادب الشعبي المرأة العجوز بتلك الصورة الكريهة ، فى حين جعل الرجل العجوز تجسيداً للحكمة وطيبة القلب . قد يرجع هذا الى ما عرف عن النساء العجائز من ممارستهن السحر ، والسحر الاسود بصفة خاصة . (انظر فصل ساحرة عين دور فى كتاب الفولكلور فى العهد القديم ـ الجزء الثاني ـ الترجمة) وربما يرجع هذا الى ما عرف عن النساء من ان لهن باع طويل فى الحيل والمكر ، وربما يرجع كذلك الى ما ترسب فى نفوس البشرية من تأثير الام، وهو ما اصطلح على تسميته بتأثير النمط النموذجي للام . فالام هي مصدر الخصب ،

وهي التي تمد الابناء بالطعام والدفء ، وقد يكون تأثيرها ايجابيا الى أبعد من ذلك عندما تتيح للابناء فرصة الانطلاق مع ارتباطهم بجذورهم ، وهي في هذه الحالة تعينهم على الوصول الى الحكمة والابداع . وقد يكون تأثيرها عكس ذلك تماما عندما تكون عائقا نفسيا عن الانطلاق الروحي ، ونمو الشخصية وتكاملها . وهذا السلوك الاخير للام هو ما جسدته الاساطير في الآلهة حارسة العالم السفلي ، وفي الساحرة اليونانية كيرك ، كما جسدته الحكايات الخرافية في صورة أمنا الغولة .

وعندما أصبح الانسان الشعبي أكثر واقعية في عصرنا الحاضر ، لم يعد يتطلب من بطل الحكاية ان يخوض مغامرة مجهولة من أجل الوصول الى الاميرة المسحورة فيخلصها من قبضة المارد، او من أجل الوصول الى التفاحة السحرية التي تتدلى من فرع شجرة تنمو في غابات مظلمة بعيدة لا يمكن ان يصل اليها الانسان المعادي . كما انه لم يعد يفترض ان البطل لا يمكنه الوصول الى غرضه ، وان خاض في سبيل ذلك الاهوال ، الا عن طريق الاداة السحرية التي يستخدمها في الوقت المناسب . بل أصبح يتطلب من البطل ان يعبر عن مشكلاته الواقعية التي يعاني منها ، سواء كانت تلك المشكلات تنتمي الى عالمه المرئي ، او الى عالمه غير المرئي . وطبيعي ان الانسان الشعبي يدرك تماما عجزه عن حل هذه المشكلات ، لانها مشكلات نجمت اما عن عيب في بناء مجتمعه مثل مشكلة الظلم ومشكلة الفوارق الاجتماعية ، أو انها نجمت عن ارادة القوى الغيبية ، وهي ارادة ليس للانسان ان يتدخل فيها . ومع ذلك ، فان الانسان الشعبي ، اذ يعبر عن هذه المشكلات الواقعية التي أصبح يحسها ويعاني منها كل المعاناة ، لا يكتفي بتصويرها في قصصه ، بل انه يجتهد في تفسيرها او ايجاد حل لها . ومن ثم فقد خلق في قصصه الذي يحكيه اليوم ، شخصية تشبه الى حد كبير شخصية الرجل الكهل الحكيم التي تظهر في القصص الخرافي ، وان اختلفت عنها تماما في وظيفتها . ذلك ان هذه الشخصية لم تعد تمنح البطل الاداة السحرية، بل اصبح يمنحه الحكمة ويبصره بواقع الامور التي يعجز عن ادراك كنهها .

فقد كان هناك ملك له ابنة واحدة يحبها ويعزها ، وذات يوم استدعى المنجمين لكي يقرأوا له طالع ابنته ويخبروه بأي رجل سوف تتزوج ، فلما نظر المنجمون في حساباتهم الفلكية ، سكتوا واطرقوا رؤوسهم . فادرك الملك ان في الامر شيئا ، فصرخ في وجوههم ليخبروه بما رأوا. فقالوا له ان طالع ابنته يخبر بانها لن تتزوج الا بعبده مرجان . وعلى الرغم من ان الملك كان يحب هذا العبد ، فان أول خاطر خطر له في تلك اللحظة هو ان يتخلص منه ، ومن ثم فقد كلفه بحمل رسالة الى ملك الشمس وان يأتيه بردها . ولم يكن ملك الشمس هذا في الحقيقة سوى شخصية وهمية ، وقد وصف له الطريق المؤدي لها وكان طريقا محفوفا بالمخاطر . ولهذا فلم يساور الملك شك في أن العبد مرجان سيهلك في هذا الطريق. وحمل العبد مرجان الرسالة وسار في طريقه ممتطيا صهوة جواده . وفي منتصف الطريق برز له شيخ عجوز جالسا في الخلاء ، فلما اقترب منه مرجان ساله الشيخ عن مقصده ، فأخبره مرجان بان الملك كلفه بحمل رسالة الى ملك الشمس لكي يأتيه بردها . عند ذاك اخبره الشيخ بأنه هو بعينه ملك الشمس وطلب منه الرسالة ، فلما فضها الشيخ ، كتب في أسفلها عبارة « اللي في علمه يتمه » ، ثم أعاد الرسالة الى العبد الذي شكره وسار في طريقه قافلا الى سيده الملك . فلما جن عليه الليل استراح عند جذع شجرة بعد أن ربط حصانه وراح في نوم عميق . ولكنه استيقظ على صوت صهيل حصانه وهو يركل الارض برجله بشدة . فلما نظر العبد مرجان الى المكان الذي يضرب فيه الحصان برجله بشدة ، ابصر فجوة وبداخلها كنز . فاخذ يستخرج من الكنز حتى تجمع

لديه مال وفير ، وفكر اثر ذلك انــه لا داعي للعودة لسيده وان يشرع فى بناء قصر ليعيش فيه حياة رفاهية ورخاء،وابتنى العبد مرجان قصرا شامخا تحيط به البساتين وتتدفــق فيه النافورات . وذات يــوم كان يستحم فى النافورة ، فلما خرج منها ونظر الى نفسه فى المرآة ، رأى ان لونه قد تحول من السواد الى البياض فيما عدا بقعة ســوداء ظلت علــى جبينه .

وذات يوم خرج الملك مع وزيره ليتريضا . وقادهم الطريق الى القصر الشــامخ ، قصر العبد مرجان ، الذي يقف فى بهــاء وروعــة وسط الرياض والبساتين ، وتعجب الملك من ان يكون فى مملكته مثل هذا القصر الرائــع ، ولهذا فقد طرق بابــه ليتعرف على صاحب هذا القصر ، ورحب بهما العبد مرجان وهو يعرفهما تماما ، وبالغ فى ترحابهما ، وبعد ان مكث الملك والوزير عنده أياما فى حفاوة بالغة ، عرض عليه الملك ان يزوجــه ابنته . ورحب مرجان بذلك ، وما هي الا أيام حتــى كانت ابنة الملك تحمل الى العبد مرجان فى صحبة أبيها وأمها والخدم والحشم .

ومكث الجميع فى ضيافــة العبد مرجان طيلة شهر دون أن يتوقف الملك على حقيقــة هذا الرجل الثري المضياف الذي بالــغ فى تقدير ابنته . وذات يوم فاجأه الملك بالسؤال عمن هو ، والى اى أصل ينتسب . وكان رد مرجان على ذلك بأنه بعينه العبد مرجان الذي كلفه ذات يوم بحمل رسالة الى ملك الشمس، كما اخبره بانه مازال يحتفظ بالرســالــة التي تتضمن رد ملك الشمس عليها . فلما فض الملك الرسالة وجد مكتــوبا فى أسفلهــا تلك العبارة : « اللي فى علمه يتمه » .

فشخصية الرجل العجوز المجهول فى هذه الحكاية ، لم تظهر فيها الا لكــي تبصر الملك الذي يعد رمزا للسلطة والتسلط الدنيويين ، بحقيقة ميتافيزيقية ليس من شأن الانســان ان يخوض فيها ، بل له ان يصارعها ، وهي ان هناك أمورا مقدرة للانسان لا يمكنــه ان يتجنبها مهما كانت سطوته وقوته البشرية . ونلاحظ أن الرجل العجوز فى هذا المثال لم يمنح البطل الاداة السحرية لكي يحارب بها التنين والمارد وينتصر عليهما ، بل منحــه الحكمــة التي اصبح يحتاج اليها الانســان المعاصر لكي تعينه على مشقات الحياة .

واذا كان القصاص الشعبي قد عبر فى هذه الحكاية عن مشكلة غيبية تشغل الانسان ، فهو لم يعبر عنها بقصدتشكيك سامعيه فيها، بل انه يسعى على العكس من ذلــك الى بث الطمأنينة فى نفسه من حيث انه لا ينبغي عليه ان يفكر فى أمور المستقبل التي ليس مــن شأنه التدخل فيها ، اذ لا يكيف تلك الامور سوى الارادة العليا التي تتصف بالقــدرة والرحمــة فى الوقت نفسه . ذلك ان ابنــة الملك لم يقدر لها ان تتزوج بالعبد الا بعــد ان تغيرت صورته كلية ، حتى لون جلده .

فاذاذ تناول القصاص الشعبي مشــكلة اجتماعية تحير ابناء الشعب ، فانه يستعين كذلك بشخصية الرجل العجوز الحكيم لعله يجيب عن تساؤلاته المحيرة . وفى هذه الحالة قد لايجد هذا الحكيم جوابا شافيا عن هذه التساؤلات ، ذلك ان المشكلة من وجهــة نظر الشعب ، قد أصبحت من التعقيــد بحيث يحتار فيها الحكماء انفسهم .

فقد اجتمعت الكــلاب البلديــة ذات يوم وتساءلت : لماذا تعيش الكلاب الرومية (وهو اصطلاح شعبي للكلاب التي يقتنيها أصحاب البيوت ويعتنون بها ويدللونها) مرفهة ، فلا تتناول سوى اللحم والخبز الشهي ، فى حين أنها قد قدر لها ان تظل تعدو فى الشوارع ليل نهار على غير هدى ، ولا تتناول من الطعــام سوى ما تعثر عليه فى القاذورات. ولما لم تجد الكلاب البلدية جوابا شافيا عن هذا التساؤل، قررت ان ترسل خطابا فى مؤخرة كلب الــى

الملك سليمان ، ذلك الشيخ القديم الذي يفهم لغة الحيوان ، لتسأله فيها عن هـذا الامر . ولكن الكلب لم يعد حتى اليوم برد الرسالة ، ذلك ان النبي سليمان نفسه لم يجد بعد الرد المقنع عن هذه المسألة المحيرة . ولكن الكلاب ما تزال تنتظر الجواب حتى اليوم . ولهـذا فانها ، عندما ترى كلبا مقبلا نحوها ، تجتمع حوله وتشمه من مؤخرته ، لعله قد أتى برد الرسالة .

واذا كان الشيوخ يمتلكون الحكمة والعلم الى هذا الحد ، فان أصحاب السلطة يخشون نقدهم الذى يمكن أن يهيج الرأى العام ضدهم ولهذا فقد أصدر ملك من الملوك مرسوما يقضى بأن يقتل كل شاب أباه الكهل حتى تخلو له البلاد من هؤلاء الحكماء الذين ينتقدون سلوكه على الدوام . وأذعن كل شاب لامر الملك فقتل أباه ، فيما عدا شابا واحدا أبى أن يفعل هذا مع أبيه ، واكتفى بتخبئته فى البيت . ولما اطمأن الملك الى أن شيوخ بلدته قد قتلوا عن آخرهم ، كان كل يوم يجمع شباب البلد عند الجبل ويرهقهم بشق الارض الصلبة دون أن يهدف من وراء ذلك تمهيدا للزرع .

وذات يوم سأل الاب الشيخ الذى ظل على قيد الحياة ، سأل ابنه عما يفعله مع سائر الشباب ، فاجابه الابن بأن الملك يجمعهم كل يوم عند جبل ويطلب منهم أن يشقوا الارض الصخرية دون أن يدركوا هدفا لهذا العمل المضنى . فلما سمع الاب ذلك قال لابنه : اذا جاءك الملك ليمر عليكم فاصطنع أنك ترفع يدك الى أعلى فمك ، وانك تضع شيئا فيه . فاذا سألك عما تفعل ، قل له ، ان ما نزرعه نأكله . فلما فعل الابن ذلك وسمع الملك منه تلك العبارة الحكيمة ، قال له على الفور : ان هذا القول ليس قولك ، بل هو قول رجل شيخ . اذهب واحضر أباك الذى لم تنفذ فيه أمرى . فذهب الابن وأحضر أباه الذى مثل امام الملك . فسأله الملك : اين كنت وقت أن أصدرت المرسوم ؟ فرد الاب قائلا لقد كنت مسافرا وشغلت عن عودتى بأمر عسير ، فلما عدت كان المرسوم قد نفذ وانتهى الامر . فسأله الملك مرة أخرى : وما هو ذلك الامر العسير الذى أخر عودتك ؟ فاجاب الرجل : لقد كنت ياجلالة الملك أحضر حفل زواج ابنة البومة من الغراب . وقد دب الخلاف بين الطرفين فى اللحظة الاخيرة . وكان يحتم علينا، نحن المدعوين ، أن نفض النزاع . ذلك ان البومة اشترطت أن يكون مهر ابنتها خمسين بلدا خربا . وقد اقنعنا الغراب بقبول ذلك ، فقبل وانتهي الامر . عند ذاك قال له الملك : وهل من المعقول أيها الرجل المففل أن هناك خمسين بلدا خربا على وجه الارض ؟ فردعليه الرجل الشيخ قائلا : نعم ياجلالة الملك ، ان كل بلد يحكمه رجل أخرق ، فهو خرب .

وأسقط فى يد الملك ، وأقر بخطئه وقال : حقا « اللي ما لوش شيخ ، شيخه الشيطان » وقد أصبح هذا القول مثلا .

والشيخ فى القصص الشعبى لا ينطق بالقول الحكيم فحسب ، بل هو قادر كذلك على فهم الاسئلة الملغزة ، وهو وحده القادر على فك رموزها .

فقد خرج الملك والوزير يتفقدان أحوال الرعية . فوصلا الى شاطىء البحر وأبصرا صيادا كهلا يجر سمكة كبيرة من البحر . وفى أثناء ذلك جرحته السمكة بزعانفها القوية فادمت يديه ، ولكنه لم يأبه بذلك واستمر يجرها . فوقف الملك والوزير عنده وسأله الملك : كيف حال البعيد ؟ فأجاب الصياد : لقد أصبح البعيد قريبا . ثم سأله الملك : وكيف حال الجماعة ؟ فأجاب الصياد : لقد تفرقت الجماعة ولم يعد من الممكن لم أشتاتها فسأله الملك : وكيف حال الاثنين ؟ فأجاب الصياد : لقد أصبح الاثنان ثلاثة . عند ذاك قال له الملك : ايك أن تبيع رخيصا ! فأجاب الرجل : انك لن توصى حريصا . وبهذا انتهى حديث الملك مع الصياد الشيخ . وفى أثناء

عودة الملك والوزير سأل الملك الوزير عما اذا كان قد فهم شيئا من حديثه مع الصياد ، فأجاب الوزير بالنفى . عند ذاك طلب منه الملك ان يفسر له مادار بينه وبين الصياد والا قطع راسه ، ثم اعطاه مهلة أسبوع .

وأخذ الوزير يدير فى راسه العبارات التى سمعها من كل من الملك والصياد علّه يصل الى مغزى هذا الكلام ولكن دون جدوى . واخيرا استقر رايه على أن يذهب ليقابل الصياد وينفحه بعض المال لكي يفسر له الكلام الذى دار بينه وبين الملك . ولكن الصياد ابى ان يفسر له شيئا الا اذا تنازل له عن الوزارة ولم يجد الوزير مجالا للخيار فوافق على ذلك. عند ذاك اصطحبه الصياد الى الملك لكي يتنازل أمامه رسميا عن الوزارة فى مقابل أن يفسر له الحديث . فلما ابصرهما الملك بادر الصياد بالسؤال وقال له : هل بعت رخيصا ؟ فأجاب الصياد : لقد اخبرتك ياجلالة الملك انك لن توصى حريصا ، لقد بعت الاجابة عن الاسئلة فى مقابل الوزارة . ثم شرع يشرح للوزير مادار بينه وبين الملك ، فقال : لقد سألنى الملك عن حال البعيد ، وهو يعنى بذلك بصرى الذى كنت أرى به بعيدا وأنا شاب ، فأجبته بأن بصرى قد ضعف مع هرمى ، وبذلك صرت لا ابصر الا الشيء القريب ، ثم سألنى عن الجماعة وهي اسنانى فاجبته بأنها قدتفرقت مع كبر سنى . ثم سألنى بعد ذلك عن الاثنين وهو يعنى به قدمي ، فاجبته بأنهما أصبحتا ثلاثة ، اذ لم أعد أسير الا بمساعدة عكازى .

وبهذا تنحى الوزير عن الوزارة وتقلدها الصياد . وبينما كان الوزير الصياد عائدا ذات يوم الى بيته ، صادف رجلا يبيع خيارا ، فوقف ليشترى منه . ولما كان الخيار طازجا للغاية فقد آلمه شوكه الرفيع ، ولهذا فقد رمى الخيار للبائع ، ورحل ومكث فى بيته بعد ذلك أياما لم يذهب فيها الى الوزارة ليباشر عمله . وقلق الملك عليه وذهب ليسأل عنه . فأخبره الصياد الوزير أنه وقف ليشترى خيارا ولكن شوك الخيار الرفيع آلمه وتسبب فى مرضه . وتعجب الملك لذلك وذكره باليوم الذى رآه فيه على شاطىء البحر يجر السمكة الكبيرة وقد جرحته زعانفها الصلبة فسال دمه . ولكنه لم يكن مكترثا بذلك واستمر يجر السمكة . وظل الصياد ينصت للملك ولما فرغ من كلامه ، رد عليه قائلا : ان هذا صحيح يا جلالة الملك ، ولكنه من الغباء التام أن يجد الانسان فرصة للنعيم والرفاهية ولا يغتنم هذه الفرصة .

وتهدف هذه الحكاية ، كما يتضح تماما من مضمونها العام ، الى ابراز عيب خلقى ، ولا نبعد اذا قلنا انه عيب سياسى ، وهو أن من يتولى منصبا قياديا من أبناء الشعب ، سرعان ما تلهيه حياة الرفاهية عن التفكير فى أحوال الشعب الذى كان ينتمى اليه ذات يوم ،ويعانى مما يعانيه . ولكن الملك لم يخطىء عندما أسند الوزارة الى ذلك الشيخ ، وان كان صيادا بدلا من الوزير ، لأن الأول حنكته الايام ، وعمقت ادراكه بحقائق الامور . فى حين قصر عقل الثانى عن ادراك ابعاد مشكلات الحياة ، وهو ماترمز اليه الحكاية عنا بفشله فى حل الاسئلة الملغزة .

• • •

ـ ٧ ـ

ومن الطبيعى أن تكون هناك بعض الامثلة الشعبية التى تلخص فلسفة الشعب فى الشيخوخة والهرم . والمثل الذى سبق أن ذكرناه وهو : « اللى ما لوش شيخ ، شيخه الشيطان » يصور تقدير الناس لمسنيهم ومدى احساسهم بقيمة وجودهم بينهم . ومن ثم فقد سمى رجال الدين بالشيوخ ، بصرف النظر عن مقدار أعمارهم ، لان الشيخ مجمع للمعرفة والحكمة والقدرة على تبصير الناس بجوهر الحياة .

وكل هذا يشير الى مدى احترام الناس

لتقادم الايام على الانسان ، وهم لذلك يحثون على احترام الصغير للكبير ، لأن اضافة يوم فى عمر الانسان معناه زيادة فى علمه وخبرته . وهم يقولون فى ذلك : « أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة »

ومع هذا لا تخلو الامثلة الشعبية من نظرة الشعب السلبيةالى الشيخوخة . فالشيخوخة هي نهاية المطاف فى حياة الانسان ، ولن يعود الشيخ بعدها شابا بحال من الاحوال . وفى ذلك يقول المثل الشعبى فى صيغة سؤال استنكارى : « هو الرائب يبقى حليب » ؟! فاللبن الحليب هو الاصل . وهو يتحول بعد عملية بيولوجية الى لبن رائب . ولا سبيل الى أن يصبح اللبن الرائب حليبا مرة أخرى . حقا أن اللبن الرائب له فوائده التى ربمافاقت فوائد اللبن الحليب ، ولكن هذا لا ينفى الحقيقة وهوان اللبن الحليب هو الاصل الطازج للبن الرائب . وربما ذكرنا هذا المثل بقول الشاعر القديم :

اترجو ان تكون وأنت شيخ
كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب
دريس كالجديد من الثياب

واذا كان الامر كذلك ، فواجب على الشيخ أن يحتفظ بوقاره بما يتلاءم مع سنه وعقله . فاذا حاول الشيخ أن يتصابى ، قال فيه المثل : « الشايب لما يدلع يبقى زى الباب المخلع » . أو يقول : عجوز ومتصابى ! فاذا لم يكن الرجل الكبير متسما بالحكمة والعقل اللذين يزينانه بعد بلوغه سن الشيخوخة ، قال فيه المثل : « شابت لحاهم والعقل لسه ما جاهم » .

●●●

هذه جولة مع الانسان الشعبى وصراعه مع الزمن . وقد حرصنا فى الجزء الأول من البحث أن نبرز صور هذا الصراع من خلال اشكال تعبيره من ناحية ، كما حاولنا ان نستخلص منها فلسفته فى فكرة الزمن بوجه عام من ناحية أخرى . وصراع الانسان مع الزمن يعنى رفضه للزمن الحسى ، وهذا الرفض يتمثل فى أمرين : **الامر الاول** ، رفض التاريخ ، بمعنى انه أحداث يسلم بعضها الى بعض بحيث لايمكن تجنبها أو تجنب نتائجها. فالانسان الشعبى فى هذه الحالة لا ينظر الى هذا الحدث ، مهما كانت نتائجة ، على انه نهاية حتمية لا مفر له من أن يخضع لها ويستسلم فى يأس ، بل أن علاقته الروحية القوية بالقوى العليا سرعان ما تزيل مخاوفه ، وتقوى امله فى تغير الحياة وتجددها ، كما هو شأنها منذ الازل ، أما **الامر الثانى** فهو رفض الاستسلام للحظة تبدو فيها الحياة ، سواء كانت الحياة الطبيعية أو حياة الانسان ـ انها قد أجدبت أو فنيت . ذلك أن الجدب والفناء يأتى بعدهما الخصب والبعث لا محالة ، وهذا يعنى أن الخصب دائم والزمن دائم ، وان تخلل ذلك فترات من الضعف والجدب والموت المؤقت .

اما الجزء الثانى من البحث فقد انتقلت فيه من فكرة الزمن المجرد الى فكرة الزمن المجسد فى العجز والهرم والشيخوخة ، كما تتمثل فى القصص الشعبى والامثال الشعبية.

وبهذا يكون الانسان الشعبى قد عبر عن فكرة صراعه مع الزمن على تحد يتسم بالشمولية والتنوع والتفاؤل الذى يَجِبُ التشاؤم . وربما كان أروع من هذا كله أنه لم يتقوقع داخل ذاته ليعبر عن مأساته ، بل عبر عن نفسه بوصفها نفسا تخفق بين أنفاس الكون النابضة ، وبوصفها ايقاعا من ايقاع الحياة الذى يتردد صداه فى جميع الاجواء ، فى الفضاء وفى الانهار وفى الجبال وفى البحار ، ومع حفيف الاشجار ، وانغام الطيور ، وربما مع الاصوات الهامسة الصادرة من العالم غير المرئى .